في إعجاز القرآن الكريم وتفسيره

الدلالة الإعجازية

في رحاب سورة يوسف عليه السلام

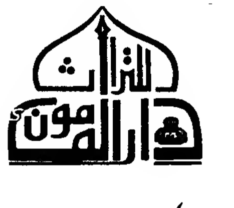
تأليف

الدكتور عمر محمد عمر باحاذق

أستاذ الأدب بكلية اللغة العربية
بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

دار المأمون للتراث

الطبعة الأولى
١٤١٧هـ - ١٩٩٧م



دار المأمون للتراث

دمشق - ص.ب ٤٩٧١ - هاتف ٢٢٢٩٨٢٠ - فاكس ٢٢٢٧٤٦٩
بيروت - شارع فردان - ص.ب ١١٣/٦٤٣٣ - هاتف ٨١٠٥٧١

قَالَ اللهُ تَعَالَى

لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

سورة يوسف (١١١)

الإهداء

إلى أخي وشقيقي :

سعادة الكابتن طيار

مساعد بن محمد عمر باحاذق

حفظه الله " آمين "

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمــة

الحمدُ للهِ على جزيلِ إحسانه ، والشُّكْرُ له على توالي أفضاله وامتنانه ، حيثُ يسَّرَ بفضله العميم هذا الخير الذي لا ينقطع ، مِن دوامِ النظر في هذا البحر العميق ، وكتابه العظيم ، الذي لا تنفد عجائبه ، ولا تنقطع غرائبه ، فهو النبأ العظيم ، والذِّكر الحكيم ، الذي لا يَخْلَقُ على كثرة الرَّد ، فعَن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه : (**إنَّ هذا القُرْآنَ مَأْدُبَةُ اللهِ تَعَالَى ، فتعَلَّمُواْ مِنْ مَأْدُبَتِهِ مَا اسْتَطَعْتُمْ ، إنَّ هَذَا القُرْآنَ هُوَ حَبْلُ اللهِ والنُّورُ المُبِينُ ، والشِّفَاءُ النَّافِعُ ، عِصْمَةٌ لِمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ ، وَنَجَاةٌ لِمَن اتَّبَعَهُ ، لاَ يَزِيغُ فَيسْتَعْتَبُ ، وَلاَ يَعْوَجُّ فَيُقَوَّمُ ، وَلاَ تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ ، وَلاَ يَخْلَقُ عَنْ كَثْرَةِ الرَّدّ ، فاتْلُوهُ فَإنَّ اللهَ يَأْجُرُكُمْ عَلَى تِلاَوَتِهِ بِكُلّ حَرْفٍ عَشْرُ حَسَنَاتٍ ، أَمَا إِنّي لاَ أَقُولُ الَم ، ولَكِنْ بِأَلِفٍ وَلاَمٍ وَمِيمٍ**) [١] .

وموضوعُ سورةِ يُوسُفَ عليه السلام يدورُ حول قِصَّةٍ مِن أَحْسَنِ القَصَصِ ، والنَّفْسُ دائماً تستشرفُ لهذا اللونِ الأدبيِّ الجميلِ ، ألا وهو " **فنُّ القِصَّةِ** " ، لِمَا تحمله من غرائب الأخبار وتحكيه مِن دقائقِ الأحوالِ ،

---

(١) أخرجه الدارمي في سننه ، في فضائل القرآن ، حديث رقم ٣١٨١ ، كما أخرجه الترمذي في سننه ، في فضائل القرآن ، عن علي بن أبي طالب ، حديث رقم ٢٨٣١ باختلافٍ يسير في الألفاظ .

وتَنسِجُهُ وتُرَكِّبُـهُ من الأوضاعِ والتَّصرُّفاتِ والأسـرار ؛ بَيْـدَ أنَّ القِصَّـة تكـونُ أروعَ وأشملَ إذ كانت مِن عنْدِ السَّميعِ العليمِ ، وتكونُ أروعَ وأثْمَر إذا كانت قِصَّةَ نبيٍّ كريم مَعَ أبيهِ وإخْوَتِـهِ ، ومَا جرى لـهُ مِنَ المِحَنِ والمَشَـاقّ ، وكيـفَ تَذرَّعَ بالصَّبْرِ الجميلِ ، ووَكَّـلَ أمْرَهُ إلى مـولاهُ ، حَتَّـى فـازَ بالرِّضـاَ والقَبُـولِ والذِّكْرِ الحَسَنِ في الدُّنيا والآخرة .

والقِصَّةُ وهـي تحكـي لنـا هـذه الوقـائعَ تحكـي لنـا الحقـائق كمـا هـي لا تسـرحُ ولا تُحلّـقُ في عَـالَمٍ مجهـولٍ أو عَـالَمِ الأسـاطيرِ والخيـالِ ، بـل هـي الحقـائقُ صادقـةً تدعونـا إلى الإيمـانِ والصِّـدقِ والصَّـبْرِ والصَّفْـحِ والإحْسَـانِ والتَّجَاوُزِ ، ثقةً في فضلِ الكريمِ ، وأنَّ للصَّبرِ عاقبة محمودةَ الأثـرِ ، وأنَّ عظيـمَ الجزاءِ مِنْ عظيـمِ البـلاءِ ، وأنَّ اللهَ إذا أحـبَّ قومـاً ابتلاهُـم ، فمَـن صَـبَرَ فلـهُ الصَّبْرُ ، ومَنْ رَضِيَ فلهُ الرِّضا ، ومَنْ سـخطَ فلـهُ السُّخْطُ ، وأنَّ أشـدَّ النَّـاسِ ابتلاءً الأنبياءُ ثُمَّ الأمْثَلِ فالأمْثَل .

هذا ولَنْ يُعْدَمَ المُتَصفِّحُ لهذا السِّفرِ من فـائدةٍ ، بـل خـيراً عظيمـاً ، ولَـنْ يُحْرَمَ مؤلِّفُـهُ مِن دعْوَةٍ حسنةٍ إن شاء الله .

والله تعالى أسألُ أنْ يجعلهُ ذُخراً ودُعَـاءً وعِلْمـاً يُنْتَفَـعُ بـهِ ، إنـّه سميعٌ مجيبٌ . وصلَّى اللهُ على الشَّفيعِ المشَفَّعِ ، نبيِّ الرحمَةِ ، نبيِّنـا وحبيبنـا محمَّـدٍ بـن عبد الله صلَّى الله علَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تسليماً كثيراً .

وتمَّ الفراغُ منه في الثاني عشر مِن ربيعِ الأوَّلِ مِـن عـامِ ألـفٍ وأربعمائـة وسبعة عشر هجريـة .

المؤلّف

المدينة المنورة — **د . عمر بن محمَّد عمر با حاذق**

تقديم بين يدي القِصَّة :

لقد عرَّف الأدباء والنقاد القِصَّة : [بأنَّها مجموعةٌ من الأحداث المترابطة يقوم بها مجموعة من الأشخاص في حركةٍ حيَّة دائبة ، ويتخلَّل كُلّ ذلك عنصر التشويق الذي يحكمه الخيال حتى نصل إلى الذروة أو العقدة التي يعقبها الحل أو لحظة التنوير] .

هذه المقومات التي ذكرها الأدباء في القِصَّة وارتضوها معياراً لنقدهم ، ومنارة تهديهم ، إنَّما اتخذوها نبراساً يضيء لهم معالم الطريق ، ويرسم لهم نظرياتهم التي اتخذوها حيال القصص المثالية ، بعد أن كانت نظراتهم ترنو إلى هذا القصّ القرآني الكريم .

إنَّ القرآن الكريم بقصصه الرائعة كان مدداً رائقاً لِكُلّ باحث ومنقّب ، وذخيرة لا تنفد لكُلّ مَن ينشد العون والمثالية المطلقة .

فَمِن معينه يرتوون ، ومِن أفكاره يقتبسون ، ومِن هُداه يسترشدون ، ومِن سحر بيانه وروعة أُسلوبه يتأثَّرون .

إنْ كانت هناك مدرسة نقدية تحاول أن ترفع مِن شأن القصّ ، وتعلي من قدره في إطاره الفني ، فذلك بعد أنْ تتمثَّل القصة القرآنية بما لها من أضواء وظِلال ، وما حولها من متعةٍ وشوق ، وأسرٍ وتلاحم ، وعِظة بالغة .

لهذا كُله آثرت الحديث عن الجوانب الفنية في القِصَّة القرآنية في سورة يوسف عليه السلام ، حتّى أكشف شيئاً من جمالها الأخّاذ الآسِر ، ولأثبت عجز البشرية وإن حاولوا المحاكاة والتمثُّل بهذا الفن ، إلاَّ أنَّهم سرعان ما يحسون بعجزٍ شاملٍ ، وإخفاقٍ واضحٍ ، ومِن ثَمَّ يحسون بالعظمة العلوية ،

والقدرة الربانية ، وصَدَق الحق القـائل ﴿ قُـلْ لَئِـنِ اجْتَمَعَـتِ الإنْـسُ وَالْجِـنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا القُـرْءانِ لاَ يَـأْتُونَ بِمِثْلِـهِ وَلَـوْ كَـانَ بَعْضُهُـمْ لِبَعْـضٍ ظَهِيراً ﴾ [١] .

سُورةُ يُوسُف :

قال تعالى : ﴿ الـر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِين * إنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعلَّكُم تَعْقِلُون * نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القَصَصِ بِمَـا أَوْحَيْنَـا إِلَيْـكَ هَـذَا الْقُرْءَانَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [٢] .

وقَدْ سُميَت سورة يوسف بأحسن القصص ، لأنَّ الله تعالى ذكـر فيهـا الأنبياء ، والصالحين ، والملائكة ، والشياطين ، والجن ، والإنــس ، والأنعـام ، والطير ، وسير الملوك والممالك ، والتجَّار ، والعلماء ، والجُهَّـال ، والرجـال ، والنساء وحيلهن ومكرهن ، وفيها ذكر التوحيـد ، والفقـه ، والسيَر ، وتعبير الرؤيا ، والسياسة ، والمعاشـرة ، وتدبـير المعـاش ، وجمـل الفوائـد الـتي تصلـح للدين والدنيا .

وقيل : بل سُمّيَت أحسن القصص : لأنّـه ليس في القرآن قصة تتضمن من العبر والحكم ما تتضمن هذه القصة ، وبيان ذلك فيما يقول الإمـام القرطـبي : قوله تعالى في آخرها : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ ﴾ [٣] .

---

(١) سورة الإسراء ، الآيـة : ٨٨

(٢) الآيات : ١ – ٣

(٣) الآيـة : ١١١

وقيل : إنّما كانت أحسن القصص لأنَّ كُلَّ مَن ذُكِرَ فيها كان مآله السعادة ، انظر إلى يوسف وأبيه وإخوته ، وامرأة العزيز ، والملك أيضاً أسلم مع يوسف وحَسُنَ إسلامه ، والساقي صاحب الرؤيا ، والشاهد فيما يُقال ، فما كان أمر الجميع إلاّ إلى الخير .

إنَّ قصَّة يوسف عليه السلام فيها الكثير من الدروس والعِبَر الصالحةِ لكُل زمانٍ ومكان ، فقصته مع إخوته تُصَورُ لنا الطبع البشري ، الذي قد توجد فيه لمسات الحقد ، وحُبُّ التَّشَفّي والانتقام ، والمكر والخديعة ، كما تُصَوّر لنا نوازع المرأة الشيطانية التي كثيراً ما تنزلق في المهالك والشهوات ، وتستجيب لدواعي الهوى .

إنَّ حديثي عن قصَّة يوسف عليه السلام ، يتناول ملامح القصَّة القرآنية في ترابطِ أحداثها وواقعيتها ، والشخصية القرآنية وحيويتها ، وعنصر التشويق والإثارة ، كما سأتعرَّض لمدى الانسجام والتناسق مع قُوَّة الإحكام والربط في هذه السورة الكريمة ، ثُمَّ أذكر ما يُستفاد من الآيات ، مع الوقوف على شيءٍ من المسائل النحوية ، والأسرار البلاغية في هذه السورة ، ليتضح لنا جليّاً عظمة هذا الكتاب الخالد ﴿ **كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ** ﴾ [1] ﴿ **اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ** ﴾ [2] .

---

(١) سورة هود ، الآية : ١

(٢) سورة الزمر ، الآية : ٢٣

عنصر التشويق :

ولعلَّ قصَّة [١] يوسف عليه السلام ، وهي أحسن القصص ، تُصَور لنا عن طريق العرض المشوق ، ألوان الإثارة من خلال الرؤيا التي رآها يوسف ﴿ **يا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً والشَّمْسَ وَالقَمَرَ رَأَيتُهُم لِي سَاجدين** ﴾ ، ثُمَّ مراودة الإخوة أباهم ليدفع إليهم أخاهم ﴿ **أرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يرتَع ويلعبْ** ﴾ ثُمَّ قذفه في البئر وادّعاءَ أنَّ الذئب قد أكله ﴿ **يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ** ﴾ . هنا تبدو النفس مشدودة إلى معرفة مصير يوسُف . وما الذي سيحدث له بعد ذلك ؟ هل سيخرج أم لا ؟ ويلتقطه السيَّارة [٢] ، فيا تُرى هل سيستخدمونه ، أم ماذا ستصنع به السيَّارة ؟ ويُباع بثمنٍ بخس ، وأين ؟ في مصر ! بعيدٌ أشدّ البعد عن موطنه الأصلي فلسطين ، ويباع لِمَن ؟ للعزيز ! [٣] .

الإثارة تشتد في معرفة مصير يوسف في هذا البيت الشامخ الوجيه ، وكيف سيتأقلم مع أُسلوب الحياة هناك ؟ .. وتعلونا مظاهر الارتياح حين نسمع العزيز يقول لامرأته : ﴿ **أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً** ﴾ . ونتساءل : هل سَتُكْرِمُ امرأةُ العزيزِ مَثْوَاهُ ؟ أم تنظر له نظرة الدَّخيل ؟ ونتشوَّقُ إلى معرفة معيشته هناك ؟؟

ونُفَاجأ بمراودة امرأة العزيز له ﴿ **ورَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ** ﴾ ونتشوق إلى معرفة موقف يوسُف معها ؟ هل سيصعق من هذه

---

(١) راجع : سورة يوسف .

(٢) السيَّارة : المارَّة من المسافرين .   مختصر تفسير ابن كثير للصابوني ٢/٢٤١

(٣) العزيز : الوزير .   المصدر السابق ٢/٢٤٨

المفاجأة ؟ أم يخضع لإرادتها ، لا سيَّما وهي وليَّة نعمته ، ويعيش معها ، وليس هو مظنّة للتُّهمة ، لأنَّ عيشه معها عاد كابنٍ لها ، فالشكوك لا تتطرَّق إليه ، ويأتي الردّ على هذه التساؤلات في تَعَوُّذ يوسُف من هذه الفِعْلَة ﴿ **قَالَ مَعَاذَ ا للهِ إنَّه رَبّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إنَّه لا يُفْلِحُ الظَّالِمُون** ﴾ . [يوسف : ٢٣] .

وهنا نتشوق أيضاً إلى معرفة ردّها ، هل ستوقع به ؟ أم تحاول تلافي الموقف ، وترجو من يوسف أن لا يُخبر زوجها بالأمر ؟ ولكنَّ الموقف يزداد توتُّراً ويتفاقم حَدّة ، بعد أن نفاجأ بالزوج العزيز ، يدخل في نفس اللحظة التي كان يوسف يركض مولّياً الأدبار ، وهنا يصيبنا الذُّهُول العميق حين نسمع امرأة العزيز ترمي يوسُف بتهمة الخيانة : ﴿ **قَالَت مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً** ﴾ [يوسف : ٢٥] .

ونتشوق إلى معرفة موقف العزيز من يُوسُف ، لا شكَّ بأنَّه موقفٌ حَرِج للغاية ، فيوسف يريد من العزيز أن يُحْسِن الظَّن به وهو مظلوم ، والعزيز يا تُرى يُصَدقُ مَن ، ويُكَذّبُ مَن ؟

ويُحَلُّ اللُّغز ، وتَتَبدَّد الحيرة حين شَهِدَ شاهِدٌ من أهلها ﴿ **إنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَت وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ * وَإنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ** ﴾ . [يوسف : ٢٦ - ٢٨] .

وينتقل يوسُف إلى السجن بعد هذه التهمة المنكرة ، وكانت حالة يوسف عند دخوله السجن مزيجاً من الفرح والحُزن ، الفرح لأنَّه ابتعد عن بيت المكر والخديعة ، والحُزن لأنَّه سُجِنَ ظُلماً ، والسمعة السيّئة بمَن لا يعلم حقيقة الحال ، لكن السجن كان فاتحة خيرٍ له ، ورُبَّ محنةٍ ضِمْنها منحة ،

وفي السجن يلتقي بفتيان [١] ، سألاه عن رؤياهما ﴿ **قَالَ أَحَدهُمَا إِنِّي أَرَانِـي أَعْصِرُ خَمْراً وقال الآخرُ إنّي أَرَانِي أَحْمِـلُ فَوْقَ رَأْسِـي خُبْزاً تَـأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِئْنَا بتأْويله** ﴾ ، ويُعَبر لهما الرؤيا ﴿ **أمَّا أَحَدُكُمَـا فَيَسْـقِي رَبَّهُ خَمْـراً ، وَأَمَّـا الآخَـرُ فَيُصْلَـبُ فَتَـأْكُلُ الطَّيْرُ مِـنْ رَأْسِـهِ ، قُضِـيَ الأَمْـرُ الَّـذِي فِيـهِ تَسْتَفْتِيان** ﴾ .

ونتشوق إلى معرفة سرّ تعبير هذه الرؤيـا لنجـد القـرآن يباغتنـا بـالحلّ : ﴿ **وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِـي عِنْـدَ رَبِـكَ** ﴾ . وتسـتثيرنا هـذه العبارة ، ونستشعر قـرب خـروج يوسـف مـن السـجن ، ولكننـا نُفَاجـأ بـأنَّ الساقي قد نسي ﴿ **فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِهِ** ﴾ .

ويرى الملك رؤياه ، ويعجز المعبرون عن تفسيرها ، ونجـد تعبيرهـا عنـد يوسـف علـى يـد السـاقي ، وهُنـا تتـوالى المفاجـآت في سلسـلةٍ مـــن الــترابط والاتساق ، أولها : في خروجـه مـن السـجن ، وثانيهـا : في اعـتراف زليخـا ، وثالثها : في توليه أمر الخزانة ﴿ **وَقَالَ الْمَلِكُ ائتُونِي به أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فلمَّا كلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنا مَكِينٌ أَمِين** ﴾ .

---

[١] الفتيان : اسم أحدهما بنو ، وكـان رئيـس السـقاة . والآخـر ملحـب ، وكـان رئيـس الخبازين . وكانا قد دخلا السجن بتهمة التآمر على الملك ، وقد عبَّر يوسـف رؤياهمـا بأنَّ أحدهما وهو رئيس السقاة سيبرأ من تهمته ، وأمَّا الآخر فسيذهب ضحيتها ، وقـد كانا والملك من الأجانب الذين غزوا مصر ، والذين أُطْلِقَ عليهـم اسـم " الهكسـوس " أي الملوك الرعاة .

فبعض المؤرخين يعتبرهم عرباً ، والبعض الآخر يعتبرهم فينيقيين .

راجع : اليهود في القرآن ، لعفيف عبد الفتاح طبارة ١٥٦ – ١٦٠ ، الطبعة الثامنة .

﴿ قَالَت امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ [١] الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ . ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ .

ويُعَيَّن وزيراً للخزانة ، وأصبح مسؤولاً عن صرف الميرة والطعام في زمن القحط ، وهنا تتبادر عِدَّة تساؤلاتٍ مشوقة : هل إخوة يوسف سيذهبون إليه لإحضار الميرة كسائر النَّاس ، أم لا ؟ ونفاجأ بهم في ضمن القادمين : ﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ ﴾ .

وبعد أن عرفنا قدومهم ، فيا تُرى هل سيعرفهم يوسف بعد هذه الغيبة الطويلة أم لا ؟ وهم بالتالي هل سيعرفونه ؟ وعلى افتراض أنَّ يوسُف عرفهم ، فما هو موقفه حينذاك ؟ وهنا تأتي الرُّدود على هذه التساؤلات من كتاب الله ﴿ فَعَرَفَهُمْ وهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ [٢] ﴾ . ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُم أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾ .

---

(١) حصحص : ظهر وبرز ، على أنَّ من العجيب حقّاً في اعتراف زليخا أنَّها جاءت بالبراءة ليوسف ، وهي نفسها التي نسبت إليه الفحش ظلماً وعدواناً .

ولعلَّ اعترافها " صحوة ضمير " أو أنَّها خشيت إن بقيت مُصَمِّمة على إنكارها أن تشهد عليها النسوة بما اعترفت لَهُنَّ سابقاً بما جرى معها ومع يوسُف حين قالت لَهُنَّ : ﴿ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُه لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَنَّ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ .

(٢) ﴿ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ﴾ : حيث كان في أُبَّهة الملك ، ويتكلَّم اللهجة المصرية ، وقد غيَّر اسمه إلى " صنفات فعينع " بمعنى : طعام الحياة .

اليهود في القرآن – طبارة – ١٦٧

وإذ طلب يُوسُف إحضار أخيه بنيامين ، فيا تُرى هل سيستجيب يعقوب لهذا ، أم لا ؟ وخصوصاً أنّهم خانوا أباهم من قَبْل حينما طلبوا يُوسُف ؟ .

هنا تفاجئنا نصوص القرآن بالإجابات المشوقة ﴿ **قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْل فَا للهُ خَيرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** ﴾ .

لقد تردَّد يعقوب في البداية ، لكنّه وافق في النهاية ، ولعلَّ موافقة يعقوب كانت نتيجة تلك الإشارة الخاطفة [1] ﴿ **قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ ا للهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّاءاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ا للهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيل** ﴾ .

ويصل بنيامين إلى وزير الخزانة ، فماذا سيكون موقفه مع أخيه ، هل سيعرفه أم لا ؟ وهل سيبقى في كنف أخيه ؟ وكيف الطريقة لاستبقائه ؟ وما الذي سيصنعه يُوسُفُ معه ؟

---

(١) قلنا : الإشارة الخاطفة ، لأنَّ جملة ﴿ **ائتوني بأخٍ لكُم مِن أبيكم** ﴾ متى نقلت لأبيهم أوقعته في استغرابٍ ، وجعلته يظن أنَّ لهذا الرجل المصري المتولي على خزائن مصر مغزيً في هذا الطلب ، وإلاَّ فَمَن عرَّفه أنَّ لهم أخاً من أبيهم ؟ وما هي علاقته به ؟ وما هي الأسباب التي تدفعه لهذا الطلب ؟ .

فكان هذا الطلب ما هو إلاَّ برقية خاطفة من يُوسُف لأبيه ، أو لغز لا يحلّه إلاَّ يعقوب ، يضاف إلى ذلك تجهيز يوسف إخوته بما يلزم لهم في سفرهم وزيادة الكيل لهم بدون ثمن ، فيعقوب فهم هذه الرموز ، وأنَّ ابنه يوسف في مصر ، بدليل قوله لأولاده عند زيارتهم لمصر للمرَّة الثالثة : ﴿ **يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ** ﴾ .

راجع : اليهود في القرآن : ١٦٧

والقرآن الكريم يفاجئنا بكُل هذه التساؤلات في إجابـاتٍ مثيرةٍ جـدّاً ، قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَـالَ إِنِّـي أَنَـا أَخُـوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ .

إذن فقد فرح يوسُفُ بأخيه وأعلمه بنفسـه ، ثُـمَّ أظهـر يُوسُـف لأخيـه رغبته في استبقائه عنده كتمهيدٍ لإحضار والديه إلى مصـر ، وأنَّ الطريقـة الـتي ارتآها هي نسبة السرقة إليه [1] وأخذه رقيقاً ليكون بجانبه ، فقَبلَ بنيامين .

وتشتدُّ الإثارة في كيفية العمل ، وما هـي الطريقـة الـتي سيتصرَّف بهـا يُوسُف لنسبة السرقة لأخيه ، ويأتي الحلّ : ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَـازِهِمْ جَعَـلَ السقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُـمَّ أَذَّنَ مُـؤَذِّنٌ أَيَّتُهَـا الْعِيرُ إِنَّكُـمْ لَسَـارِقُونَ * قَـالُواْ وَأَقْبَـلُواْ عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِـدُون * قَالُـواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ [2] الْمَلِك ... قَالُواْ تَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِين * قَـالُواْ فَمَـا جَـزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِين * قَالُواْ جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِـهِ [3] فَهْـوَ جَـزَاؤُه كَذَلِـك نَجْزِي الظَّالِمِين ﴾ .

ويُوسُفُ على علمٍ بأنّهم سيقولون ذلك ، لأنَّ شِرعَة بني إسرائيل تجعـل السارق في مقابل سرقته .

ثُمَّ تبدو تساؤلات جديدة وعديدة : كيف يصنـع إخـوة يوسـف ؟ هـل سيعودون بـدون بنيـامين ؟ ومـا موقـف الأب حينمـا يعـودون لـه ؟ وهـل سيعودون مرَّة أُخرى للمطالبة ببنيامين وتقديم فداء لـه ؟ ومـا موقـف يُوسُـف

---

(١) وكانت سُنَّة آل يعقوب أن يأخذوا السارق بسرقته . تفسير الجلالين : ٣٢٠

(٢) الصُّوَاع : كان من فِضَّة يشربون فيه ، وكان للعباس مثله في الجاهلية .

(٣) الرَّحل : المتاع . راجع : مختصر تفسير ابن كثير للصابوني ٢/٢٥٥-٢٥٧

منه إذا عادوا ؟

ويطالعنا القرآن بالإجابات المثيرة لهذه التساؤلات : ﴿ **فَلَمَّا اسْتَيْأَسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيّاً** ﴾ .

﴿ **قَالَ بَلْ سَوَّلَت لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ا للهُ أَنْ يأْتِيَنِي بِهِم جَمِيعاً إِنَّه هُوَ العَلِيمُ الْحَكِيمُ** ﴾ .

﴿ **فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْه قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنا الضُّرُّ وجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ** [1] **فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّق عَلَيْنَا إِنَّ ا للهَ يَجْزِي الْمُتَصَدقِينَ** ﴾ .

فهم لم يعودوا لطلب بنيامين ، و لم يأتوا حتّى بسيرته ، وهنا يرق يوسف للحال التي وصل إليها أهله ، ويرى بأنَّ وقت الإفصاح عن نفسه قد حان فيقول : ﴿ **هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ** ﴾ .

كلماتٌ تعيد إليهم ذكرياتٍ مضت واندثرت في مخيّلاتهم ، وهنا يثوبون إلى رشدهم ويقولون في غمرة الاندهاش ، وفي تساؤلٍ ممزوجٍ بالفرح والحزن ، يقولون : ﴿ **أَئِنَّكَ لأَنتَ يُوسُف** ﴾ ؟! .

ويرُدُّ عليهم : ﴿ **أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ ا للهُ عَلَيْنا إِنَّهُ مَنْ يَتّق وَيَصْبِر فَإِنَّ ا للهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ .

وهُنا يلجأون إلى تحمُّل عُذْرٍ يسوغ لهم فعلتهم ، ويدفع الخجل عنهم ، ويبرئ ساحتهم ، قالوا : ﴿ **تَا للهِ لَقَدْ آثَرَكَ ا للهُ عَلَيْنَا** ﴾ والاعتراف بالحق فضيلة ﴿ **وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ** ﴾ .

---

(١) مزجاة : مدفوعة يدفعها كُل مَن رآها لرداءتها ، وكانت دراهم زيوفاً أو غيرها .

ويلجأ يوسف إلى التخفيف من حِدَّة الموقـف وتوتُّـره ، فيقـول في تعبـيرٍ يشفّ عن نفسٍ مُهَذَّبةٍ : ﴿ **لاَ تَثْرِيبَ** [١] **عَلَيْكُمُ الْيَـوْمَ يَغْفِـرُ ا للهُ لَكُـم وَهُـوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** ﴾ .

ثُمَّ نتشوَّق إلى معرفة لقاء يوسُف بأبويه ، هل سيعود لهما ؟ وإذا عـاد ما هي الطريقة التي يعود بهـا ؟ هـل يعـود في موكـبٍ ملوكـيٍ رهيـب أم لا ؟ وإذا اتَّضح الحق وعرف أبوه ما فعل بإخوتـه ما يكون موقفه منهم حينئـذاك ؟ ويفاجئنا القرآن الكريم بالإجابات التالية :

﴿ **اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي** [٢] **هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَائْتُونِـي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِين** ﴾ .

﴿ **فَلَمَّا أنْ جَاءَ البَشِيرُ** [٣] **أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ** [٤] **بَصِيراً قَـالَ أَلَـمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ ا للهِ مَا لاَ تَعْلَمُون** ﴾ .

---

(١) لا تثريب : لا تأنيب ولا عتب .

(٢) والقميص : هو قميص إبراهيم الذي لبسه حين أُلْقِيَ في النّار ، كان في عُنُقِه حين أُلْقِـي في الجب ، وهو مـن الجنَّـة ، وقيـل : إنَّ فيـه ريحهـا ، ولا يُلْقَـى علـى مبتلـىً إلاَّ عـوفي بإذن ا لله . راجع : تفسير الجلالين : ٣٢٣

(٣) البشير : هو يهوذا ، وكان قد حمل قميص الدَّم سابقاً فأحبَّ أن يفرحه الآن .

(٤) فارتدَّ بصيراً : ذاك لأنَّه ابيضَّت عيناه من الحزن ، حيث تنشأ عن الحـزن العميـق حالـة نفسية يزداد بسببها الضغـط علـى العينـين وتحـدث الجلوكومـا ، أو مـا يسـمَّى عرفـاً : " بالمياه الزرقاء " ، فيزول صفاء القرنية وبريقها ، ويضعف البصـر شـيئاً فشـيئاً ، حتـى يزول نهائياً وتبدو العين بيضاء .

فانظر كيف وصف القرآن الكريم حالة يعقوب بما يؤيِّـده العلـم ، ومـا ذاك إلاَّ أنَّـه وحيٌ إلهيٌّ لا مِنْ صُنْعِ البَشَر . راجع : اليهود في القرآن : ١٧٥

﴿ قَالُواْ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ * قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ .

ويتجهَّز الأب والإخوة للرحيل إلى مصر ، وهناك كان لقاء الأحبة ، لقاء لا يُوصَف ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِنْ شَاءَ ا للهُ آمِنِينَ ﴾ .

وبعد أن انتهت القصة يَحَارُ العقل في ربط الرؤيا المنامية الأولى لِيُوسُف حيث قال : ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ .

فتبيَّن صدق الرؤيا بسجود إخوته ، وكان عددهم أحدَ عشرَ أخاً ، ورفع أبويه على العرش ، وهما الشمس والقمر ﴿ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّداً [1] وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْل قَدْ جَعَلَهَا رَبي حَقّاً ﴾ .

ثُمَّ انظر إلى الفِطْنَة في القول ، فقد قدَّم ذِكْر مِنَّة ا للهِ عليه بإخراجه مِن السجن مع كونها تالية لِمِنَّة الخروج من البئر ، ولم يذكر سببها إلاَّ ضمناً ﴿ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾ ليفصح عن حرصه على الطهارة والنقاء ، إذ في خروجه من السجن استبان أنَّه بريء من أي ريبة ، وما اختلقته امرأة العزيز كان محض افتراء ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ

---

(١) سُجَّداً : سجود انحناء لا وضع جبهة ، وكانت تحيتهم في ذلك الزمان .
أبويه : أُمُّه وأبوه . ولكن مَن هِي أُمّ يوسف التي حضرت إلى مصر ؟ قيل هي : " راحيل " ، ولكن ورد في سفر التكوين أنَّ " راحيل " ماتت وعُمْر يُوسُفَ عشر سنين . وقيل : المراد مِن أُمِّه التي حضرت لمصر " بلهه " جارية أُمِّه ومربيته حال حياة أُمِّه وبعد وفاتها ، والمربية تُدعى أُمّاً لقيامها مقام الأُمّ .

السجْن وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاء إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [يوسف : ١٠٠] .

كُلُّ ذلك في تفصيلٍ مثيرٍ ، وارتباطٍ وتشابُكٍ قائم على حلقاتٍ مثيرة ، عقدة تلو الأُخرى ، وحلولها في تعانُقٍ وارتباط ، فلو لَم يُلْقَ في البئر لَمَا وَصَلَ إلى بيت العزيز ، ولولا مراودة امرأة العزيز له لَمَا دَخَل السجن ، ولولا السجن لَمَا وَصَلَ إلى الوزارة ، ولَولا الوزارة لَمَا التقى بإخوته ، ولولا التقاؤه بهم لَمَا تُوصلَ إلى تفسير اللغز المنسي يُوسُف ... الذي اتُّهِمَ بَأَكْل الذئب له ، ثُمَّ تعبير الرؤيا التي وردت في بداية السورة ، كُلُّ هذا في تكاملٍ وتزاوجٍ واتساقٍ .

رسم الشَّخصية القرآنية وحيويتها :

وإذا كان الحكم على الشخصية يتم من خلال التعرُّف على تصرُّفاتها وعاداتها ، فإنَّ المتتبع للقصص القرآني يستطيع أن يتعرَّف ويحكم على شخصياته من خلال أحداثها ، لأنَّ الحكم على الشيء فرع من تصوُّره .

فشخصية يُوسُف عليه السلام تشف عن نفسٍ مؤمنةٍ صابرةٍ على تحمُّل اللأواء ، بدليل أنَّه حينما رماه إخوته في الجُب صَبَر واحتسب وعلم أنَّه أمرٌ مقدورٌ له .

وحينما راودته التي هو في بيتها ، وغلَّقَت الأبواب ، ظهرت قوَّة الإيمان ﴿ **قَالَ مَعَاذَ ا لله** ﴾ ، ثُمَّ بعد أن ثبتت براءته قال قولته التي تدل على عظمة الإيمان ورسوخه : ﴿ **ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْه بِالْغَيْبِ وَأَنَّ ا لله لاَ يَهْدِي كَيْدَ الخَائِنِينَ * وَمَا أُبَرّئ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارةٌ بِالسُّوءِ** ﴾ [يوسف : ٥٢-٥٣] . قِمَّة التواضع ، وخفض الجناح لبارئه ، وهكذا فحسنات الأبرار سيئات المقرَّبين .

والعلم مع الأمانة ، وذلك في تعبير الرؤيا ﴿ **لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانه إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأتِيكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبي** ﴾ [يوسف : ٣٧] وهما شرط في ذوي المناصب الرفيعة .

والأمانة في حفظ العهد مع العزيز فلم يخنه في عرضه ، حاشاه ، وذلك مع توفُّر الأسباب الدَّاعية لذلك ﴿ **ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ ا لله لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ** ﴾ [يوسف : ٥٢] ، فكانت أمانته مع علمه سبباً في قبول الملك طلبه في ولاية الخزانة ﴿ **اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِن الأَرْض إِنِّي حَفِيظٌ عليم** ﴾ [يوسف : ٥٥] .

ثُمَّ الدربة ، وسعة الحيلة ، وفرط الذّكاء ، حيث استطاع أن يعمل الوسيلة الناجحة لإحضار أخيه الشقيق بنيامين حينما ذهب إخوته لطلب الميرة ، وحيلته في أنّه خاطبهم بأنّه يُحْسِن المكيال ، ويكرم الضيوف ﴿ **وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِم قَالَ ائْتونِي بَأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلاَ تَرَوْنَ أَنّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِين** ﴾ [يوسف : ٥٩] .

وأراد أن يُرَغِّبَهُم في العودة إليه والرجوع لأخذ الميرة مرّة بعد مرّة ، فقال لهم : ﴿ **فَإِنْ لَمْ تُؤْتُون بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلاَ تَقْرَبُون** ﴾ [يوسف : ٦٠] .

إنّها كُلّها حِيَل خطّها يوسُف الصّديق بأمرٍ من ربّه حتّى يعمل إخوته على أن يعود إليه جيامين ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، ولذلك كان ردّهم دالاً على ذلك حيث قالوا : ﴿ **سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاه وَإِنَّا لَفَاعِلُون** ﴾ [يوسف : ٦١] . على معنى : أننا سنجتهد في طلبه ونحتال في انتزاعه من يد أبيه .

ومِن حيله الدَّالَّة على قوة الفطانة والحكمة الرصينة في استبقائه أخيه بنيامين بوضع صواع الملك في رحله ليأخذه في مقابله ، وهي شريعة بني إسرائيل حيث إنّهم يأخذون السَّارق في مقابل سرقته ﴿ **فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِم جَعَلَ السقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرِ إِنَّكُم لَسَارِقُونَ * قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَاذَا تَفْقِدُونَ * قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِك وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِير وَأَنَا بِهِ زَعِيم * .... قَالُواْ فَمَا جَزَاؤُه إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِين * قَالُواْ جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ** ﴾ [يوسف : ٧٠-٧٢ ، ٧٤-٧٥] .

ولمّا بدأ بتفتيش الرّحل فتّش جميع الأوعية وأخّر وعاء أخيه ، بل تردّد في تفتيشه ، حتّى قال لـه الإخوة : لابُـدَّ مِن أن تفتّشـه ﴿ **فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِم قَبْلَ وِعَاءَ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ** ﴾ [يوسف : ٧٦] .

فنجحت الحيلة حيث إنّـه استبقى بنيامين لا قسراً ، وإنّما بحُكْـم تطبيـق الشريعة التي كانت سائدة حينئذاك .

ثُمَّ الحنين حيث أخذه الشوق والحنين لرؤيـة أخيه الشـقيق بنيـامين بعـد أن رأى إخوتـه جميعاً ﴿ **ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ** ﴾ [يوسف : ٥٩] .

والشفافية والطُّهْر مع الروحانية الصّادِقـة والإلهامات الربّانية والتجلّيـات الإلهيّة ، حيث إنّـه حينما رأى إخوته عرفهم ﴿ **وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُون** ﴾ [يوسف : ٥٨] .

فـرقٌ بـين شـخصية يوسـف وشـخصية إخوتـه ، فبصـيرة يوسـف فيهـا إشراقـة ، وأنوار متلألئة ، حتى استطاعت أن تكشف الحقيقة ، فيلـوح لهـا أنَّ هؤلاء هُم إخوة يوسُف .

أمَّا شخصية إخوتـه فلا زالت شخصية مطمورة فيها صدأ ، حتّى لم تـر الحق حقّاً ، ومِن ثَمَّ لم تتعرَّف على شـخصية يوسُـف و لم تفطـن إلى أنـّه هـو الشخص الذي كادوا له كيداً ، حتّى دبَّروا له الحيلة ، وصنعوا به ما صنعوا .

ثُمَّ اللباقة ، وحُسْن الذّوق ، والأدب ، والحصافة ، التي تدلّ على ذكـاء نادر ، حينما ثبت ظاهرياً بأنَّ بنيامين هو السّارِق ، حيث وُجدَ صواع الملـك في وعائـه ، قال إخوة يُوسُـف : ﴿ **قَالُواْ إِنْ يَسْرِق فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْل** ﴾ [يوسف : ٧٧] . مع بيـان أنَّ إخـوة يُوسُـف لازالـت نفوسـهم تبغـض يُوسُف وتكرهه ، حتّى افتأتوا عليه فرموه بالسرقة ، إلاَّ أنَّ يُوسُف لم يجـابههم

بالحقيقة ، و لم يعاملهم بالمثل ، و لم يخبرهم بدسائسهم وحيلهم التي صنعوها قبل ذلك ، حيثُ ألقوه في البئر ، ولكنّه أخفى هذه العبارة في نفسه ، و لم يظهرها لإخوته تلطُّفاً منه حتّى يصل إلى ما يريد أن يصل إليه ، ولكنّه قال في نفسه : ﴿ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَاناً ﴾ [يوسف : ٧٧] . على معنى أنّهم بسرقتهم لأخيهم هُم شَرّ الناس منزلة ، قال ذلك في نفسه و لم يبدها لهم .

كما يظهر يُوسُف في تسامحه وهو ما يُسَمّى بالعفو عند المقدرة ، وذاك حينما تعرّف عليه إخوته ، فقد كان بمكنته أن يوقع بهم وهم الذين أساءوا إليه ، ولكن الصديق لا يفعلها ، لأنّ كرم عنصره ، وشرف نجاره ، يأبى عليه أن ينزلِق هذا المُنْزَلَق ، فضلاً عن أنّه قد أصدر قراره بالعفو العام عنهم ، بدلاً مِن أن يثأر منهم ، ويطلُب مجازاتهم ، فقال : ﴿ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ ا لله لَكُم وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [يوسف : ٩٢] .

وأمّا في قوله ﴿ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبي حَقّاً ﴾ [يوسف : ١٠٠] . فتتأكّد شخصية يوسف المكينة في تعبير الرؤيا حينما ربط بين سجود أبيه وأُمّه وإخوته حينما دخلوا عليه ، وسجودهم من باب التحية والإكرام لا مِن باب العبودية .

حينئذاك ربط يوسف بين هذا الصنيع الذي صدر من أبويه وإخوته بالرؤيا التي رآها سلفاً قبل أن يكيد له إخوته : ﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ [يوسف : ٤] ، ربط بين تلك الرؤيا وبين سجود أبيه وإخوته حينما دخلوا عليه ﴿ قَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ ﴾ [يوسف : ١٠٠] .

إنّها شخصية مؤمنة قانتة ، لقد صهرتها الأحداث ، وهزّتها النوائب ، مِن قذفٍ في البئر ، واتّهامٍ هو منه بُراء ، والسجن ظُلْماً ، والبُعْد عنِ الأبوين والأقارب . لقد صمد على هذا كُلّه وهو ثابت العقيدة ، متلالئ الإيمان بجبينه مشرقٌ باليقين ، حتى إذا ما انقشعت الغمامة ، وزال الكرب ، واجتمع مع الأحباب في مكانٍ طَيّبٍ خصبٍ ﴿ **وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي** ﴾ [يوسف : ١٠٠] .

وهُنا تتجلّى شخصية يُوسُف ، وقد مُلِئَت بالحياء والخجل ، بعد أن تاب ا لله على إخوته ، أبى كُلّ الإباء أن يذكر عبارة تجرح شعورهم ، أو تؤلِم مشاعرهم بعد أن ندموا وتابوا ، فهو يشكر ا لله على خروجه من السجن ، و لم يذكر حديث الجُبّ والرمي في البئر ، وهذا هو حياء المؤمن ، وحصافة أهل الفطنة والذكاء ، فالموقف يتطلّب الرقّة ، والتّسامح ، وعدم ذِكْر الأسى وما يجلب البغض والكراهية ، ومِن ثَمَّ ربط هذه الدسائس كُلّها بفعل الشيطان فقال : ﴿ **مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاء إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ** ﴾ [يوسف : ١٠٠] .

لقد استمرَّ يُوسُف في شكره لله ، حيث إنّه في محنته قد أعطاه ا لله الملك ، وعلّمه علماً واسعاً به عبَّر الرؤى ، ومِن ثَمَّ فهو يشيد بعظمة ا لله وقدرته ، ويمد يده إلى السماء ، ويأمل من ربّه أن يجزيه الحسنى في الدار الآخرة ، كما جزاه بالحُسْنَى في الدُّنيا ﴿ **رَب قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيث فَاطِرَ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ أَنْتَ وَلِيي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بالصَّالِحِينَ** ﴾ [يوسف : ١٠١] .

وشخصية يعقوب تمتاز بالثقة با لله ، فحينما قدم عليه أبناؤه مُدَّعين أنَّ الذِّئب قد أكل يُوسُفَ ﴿ **وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِب** ﴾ [يوسف : ١٨] . فحينذاك عَلِمَ أنَّ ولده قد فُقِدَ ، وقد كان مقرّباً إلى نفسه ، ولكنَّه لم يجزع جزع المريب والشاكّ في قضاء ا لله وقدره ، فقال عبارته الدالَّة على إيمانه المتَّقد ، واعتماده على ربه الذي لا رادَّ لقضائه ﴿ **قَالَ بَل سَوَّلَت لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَا للهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُون** ﴾ [يوسف : ١٨] .

وفي المرَّة الثانية حينما طلبوا منه ولده بنيامين بعدما قدَّموا إليه مِنَ الحِيَل ، وقد ساوره الشكّ فيهم حتَّى قال : ﴿ **هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إلاَّ كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ** ﴾ [يوسف : ٦٤] .

ولكنَّه وقد قدَّم الولد لهم حتَّى يأتوا إليه بالميرة ، فلا يكون سبباً في هلاكهم من الجوع ، يربط ذلك كُلّه بقدرة ا لله عزَّ وجلَّ ، فيقول : ﴿ **فَا للهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِين** ﴾ [يوسف : ٦٤] .

وهو إذ يرسل الولد معهم يُذكّرهم بعهد ا لله وميثاقه ، وفي ذلك لونٌ رائعٌ من ألوان الإيثار ، ودليل قوي على فطنة يعقوب وذكائه ، حيث إنَّه تردَّد في البداية ، والمؤمن لا يُلْدَغ من جحر مرَّتين ، ولكنَّ ذلك كُلّه في سبيل لقمة العيش ، وإحياء النُّفُوس المجهدة : ﴿ **قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ ا للهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إلاَّ أَنْ يُحَاطَ بِكُم فَلَمَّاءاتَوهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ا للهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ** ﴾ [يوسف : ٦٦] .

وحينما عادوا إلى أبيهم من غير بنيامين ، فأخبروه بما حدث حتَّى احتُجِزَ جزاء فعلته ، نرى يعقوب للمرّة الثانية لا يتزعزع عن عقيدته ،

ولا تلين شوكته ، ولا تضعف إرادته ، ولا تخمد ثقته با لله حتى قال : ﴿ **قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ا للهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِم جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ** ﴾ [يوسف : ٨٣] .

وهو إذ يُحَدّث عن هذا الحدث ، وقد ذكّره بحدث يوسُف ﴿ **وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّت عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ** ﴾ [يوسف : ٨٤] .

حتّى لِيمَ على ذكْرِهِ الدائم لِيُوسُفَ ، والتَّفَجُّع عليه ﴿ **قَالُواْ تَا للهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الهَالِكِينَ** ﴾ [يوسف : ٨٥] . على معنى : إنّك لا تزال تذكره وتتحسَّر عليه ، وعلى ضياعه ، حتى تهلك أسىً وحسرةً ، وتموت ، ولكنّه أعرب عن قصده الدالّ على قوة إيمانه فقال : ﴿ **إِنَّمَا أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى ا للهِ** ﴾ [يوسف : ٨٦] .

ومع فقده لولده الأول يُوسُف ، وقد طال شيءٌ من الوقت ، إلاّ أنّه لم ييأس ، ولم يقنط من رحمة ا لله عزَّ وجلَّ في أن يعود إليه بنيامين مُصاحِباً لأخيه ا لأكبر يُوسُف ، فيتحقّق الفرح كاملاً ، وفي ذلك يقول : ﴿ **يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَوْحِ ا للهِ إِنَّه لاَ يَيْأَسُ مِنْ رُوحِ ا للهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ** ﴾ [يوسف : ٨٧] .

نعم لقد طال الوقت على يعقوب ، ولم يحظ برؤية يوسُف ، إذ أنَّ يُوسُفَ طلب من إخوته عند المكيال أن يُحْضروا له أخاهم بنيامين ، ولم يطلب أن يحضروا أباه ﴿ **ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ** ﴾ [يوسف : ٥٩] ، والمولى بهذا يريد أن يُضاعف الأجر ليعقوب ، لأنَّ عظم البلاء من عظم الجزاء ، وأنَّ ا لله إذا أحبَّ قوماً ابتلاهم .

وتتجلّى في شخصية يعقوب عاطفة الأُبوّة الكامنة ، فبالرغم من أنّه كان ملهماً بأنَّ أولاده صنعوا بيوسُف ما صنعوا ، وأضمروا له الحقد الدفين ، مِمَّا سبّب له هذه المحنة التي فيها فقد ولديه ، إلاّ أنّه كان يتمنّى لأولاده كُلَّ خير ، فيبدو رقيق القلب عليهم ، يحنّ لهم ، حتى إنّهم إذا أرادوا أن يدخلوا مصر لايدخلونها دفعةً واحِدة حتى لا يتعرّضوا لحسد الحُسّاد ، ونظرة العين الطائشة ، فهو يؤمن بالحسد ، ويقر أذى العين ، وإن كان ذلك مِن قضاء الله سبحانه وسلطانه : ﴿ **وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ** ﴾ [يوسف : ٦٧] ، فهو إن أمرهم بأخذ الحيطة ، إلاّ أنّه يرى أنَّ حكم الله نافذ ﴿ **وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلاَّ للهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ** ﴾ [يوسف : ٦١] ، أي : لا أدفع عنكم بحيلتي شيئاً مِمَّا قضاه الله ، على معنى : أنَّ الحذر لا يدفع القدر ، وهو بذلك كان مؤمناً بربّه أشدّ الإيمان ، حيث إنّه ربط بين القدر والحذر .

ومِنْ ثَمَّ نرى أنَّ الله عزَّ وجلَّ أثنى عليه كُلَّ الثناء فقال معقّباً على هذا : ﴿ **وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ** ﴾ [يوسف : ٦٨] .

ولقد كان قوي البصيرة ، ملهم الفؤاد ، حيث إنَّ العير حينما خرجت منطلقة إلى الشام لتبشره بعودة يوسف والعثور عليه قال : ﴿ **إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَنْ تُفَنِّدُونِ** ﴾ [يوسف : ٩٤] ، أي لولا أن تتهموني بالخرف وذهاب العقل ، مِمَّا يدلّ على إلهاماته المشرقة ، وبصيرته النيّرة . وهكذا نرى أنَّ شخصية يعقوب اتّضحت في قوّة إيمانه وذكائه المتّقِد ، وبُعده عن

اليأس والقنوط ، واعتماده على الله عزّ وجلّ مع الأخذ بالأسباب ، كما نلمس فيه عاطفة الأبوة التي تفجّرت في الحفاظ على أولاده وأحاطتهم بسياجٍ به لا يلحقهم شر العين وأذى الإنسان ، كُلّ ذلك في بصيرةٍ مشرقةٍ ، ونفسٍ ملهمةٍ ، لا ريب في ذلك ، فهو نبيٌّ من أنبياء الله سبحانه .

وأمّا شخصية إخوة يوسُف ففيها شيءٌ من الغَيْرة الإنسانية ، يتجلّى هذا في قوله تعالى : ﴿ **إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ** ﴾ [يوسف : ٨] .

كما تمتاز بشيءٍ من القدرة على الخداع والمراودة ﴿ **مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ * أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعِ وَيَلْعَب وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ [يوسف : ١١-١٢] . وفي قولهم : ﴿ **لَئِن أَكَلَهُ الذِّئبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَخَاسِرُون** ﴾ [يوسف : ١٤] ، ثُمَّ مجيئهم أباهم عشاءً يبكون ﴿ **وَجَاءُواْ أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُون** ﴾ [يوسف : ١٦] ، إنّها مخادعة واضحة حتّى يؤكّدواْ لأبيهم أن لا ذنب لهم في فقد أخيهم يوسف ، فادَّعوا أنَّ الذئب قد أكله ، واستدلوا على ذلك بقميصه الملوَّث بالدماء الكاذبة ﴿ **وَجَاءُواْ عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ** ﴾ [يوسف : ١٨] ، على معنى : أنّهم جاءوا على ثوبه بدمٍ ليس مِن دمه .

يذكر ابن عباس – رضي الله عنهما – في تفسير الآية : " إنّهم ذبحوا شاةً ولطّخوا بدمها القميص ، فلمّا جاءوا يعقوب قال : كذبتم ، لو أكله الذئب لخرق القميص " [١] .

---

[١] الطبري ١٢/١٦٤ . وراجع : صفوة التفاسير ، الجزء السادس . طبعة دار القرآن ، بيروت .

كما نلمس فيهم شِدَّة الجَدَل مع قُوَّة الحُجَّة ﴿ **قَالُواْ يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون** ﴾ [يوسف : ٦٣] ، ﴿ **قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّت إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ** ﴾ [يوسف : ٦٥] .

وإلصاقُ التُّهَم مَع عَدَم التَّورُّع فيها : ﴿ **إِنْ يَسْرِق فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ** ﴾ [يوسف : ٧٧] ، عودةٌ إلى المراوغة واستعمال الحيلة ، ولكن عَلَى مَن ؟ عَلَى مَن عرفها !! ﴿ **يَا أَيُّهَا الْعَزِيز إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَه** ﴾ [يوسف : ٧٨] ، فهُم يحسنون وسائل الاعتذار والتملُّق ﴿ **إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِين** ﴾ .

وتظهر قوَّة الحُجَّة أيضاً ، حينما أخذوا يُوسُفَ وأخاه : ﴿ **إِنَّ ابنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ * وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُون** ﴾ [يوسف : ٨١-٨٢] .

أخيراً في اعترافهم بذنبهم كوسيلةٍ للاستلطاف والتهيئة ﴿ **قَالُواْ تَاللهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِين** ﴾ [يوسف : ٩١] ، ولكن مع هذا كُلّه نرى أنَّها نزغة شيطان لفَحَتْهُم ، ونوازع الهوى قد أصابتهم ، ومع ذلك حينما استبان الحق لهم ، وانبلج نور اليقين ، نراهم قد أحسُّوا بوخزٍ يساورهم ، وبضميرٍ يؤنبهم ، ومِن ثَمَّ اعترفوا بالخطيئة ، وأحسُّوا بالذَّنْب ﴿ **قَالُواْ تَاللهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِين** ﴾ ، وطلبوا من أبيهم أن يصفح عن زلَّتهم ، فيطلب من ربه لهم المغفرة ﴿ **قَالُواْ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِين** ﴾ [يوسف : ٩٧] .

وهكذا أحسسنا بشخصية هؤلاء ، التي إن تعثّرت في زلتها ، وسقطت في مهاوي الضّلال ، إلاّ أنّها سرعان ما تعود إلى ربها ، وترجع إلى خالقها ، فهو - جلّ وعلا - غفّار الذنوب ، وقابل التوبة الصادقة ﴿ **يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الكِتَابِ** ﴾ [الرعد : ٣٩] .

وهنا لفتةٌ جميلةٌ بدت من إخوة يوسف حينما طلبوا من أبيهم أن يستغفر لهم بدلاً من أن يطلبوا بأنفسهم ، ففي ذلك مرضاة لأبيهم ، وهو الذي وقعت عليه الإساءة ، وعاد إليه الكرب الشديد ، فعاش بسببهم في محنةٍ قاسيةٍ لا يقدرُ عليها إلاّ الصابرون .

إنّ طلبهم من أبيهم الاستغفار فيه ترضيةٌ لخاطره ، واعترافٌ منهم بأنّهم نكلوا به ، فلابُدَّ مِن أن يصفح عنهم أوّلاً ، ويتسامح في صنيعهم حتّى يهيىء نفسه للدعاء لهمُ ، فإذا طلب من الله عزّ وجلّ ، أن يتوب عليهم ، فمعنى ذلك أنّ نفسه قد استراحت ، وأنّ روحه قد فاضت بحُبّ الخير لهم ، وهكذا كانت شخصية إخوة يوسُف ، شخصيّة متمكّنة ، لها طابعها المُمَيّز لها ، فكان لهم أُسلوبهم الخاص ، واتّجاهاتهم التي تشف عن طبائعهم ، ومع أنّنا قد لمسنا منهم الوقوع في المحظور ، والزلّة في المعصية ، رأيناهم وقد رَقّوا لأبيهم عند حجز بنيامين ، فكان في عبارتهم : ﴿ **إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ** ﴾ [يوسف : ٧٨] . ما ينبئ عن تعاطفهم الشديد نحو أبيهم ، وكأنّهم في المرّة الثانية لم يقصدوا أن يخونوا العهد كما خانوه قبل ذلك مع يُوسُفَ ، وإنّما الظروف والدوافع هي التي جعلتهم يعودون إلى أبيهم وليس في صحبتهم بنيامين ، وسبحان ربي !! لقد تنبّأ لذلك أبوهم يعقوب بإلهامٍ إلهيٍّ حينما أخذ عليهم العهد في رَدّه : إلاّ أن يُحاط بهم ،

أي : أن يكون الأمر خارجاً عن إرادتهم ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَنْ يُحَاطَ بِكُم [1] فَلَمَّا آَتَوهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ [يوسف : ٦٦] .

وأمَّا شخصية زليخا فهي تصوّر غريزة المرأة حينما تكون مندفعة في شهوتها : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّت بِهِ وَهَمَّ بِهَا ﴾ [يوسف : ٢٤] ، وحينما تفاجأ بأنَّها قد وقعت في سوءِ ما دبَّرت ، تدركها غريزتها فتتنصَّل من تهمتها وتلصقها بغيرها ﴿ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً ﴾ [يوسف : ٢٥] .

وحين تسمع بحديث النسوة تساورها نفسها أن تثبت لَهُنَّ ضعفَهُنَّ أمام هذه الشهوة العارمة ، كما ضعفت هي أمامها : ﴿ فَلَمَّا سَمِعَت بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَت لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَت اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيدِيَهُنَّ ... قَالَت فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيه ... ﴾ [يوسف : ٣١-٣٢] .

ثُمَّ هي تسعى بكُلّ ما أُوتيت من قُوَّةٍ لتحقيق غرضها الأثيم ، فهي أسيرة شهوتها ، وهي ضعيفة الإرادة أمامها ﴿ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُه لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَن مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ [يوسف : ٣٢] .

وأخيراً تغلبها أُنوثتها حين ترى الوقائع وهي تكشفها فتقول : ﴿ الآن حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [يوسف : ٥١] .

هذه نماذج لشخصيات قرآنية ، وكما لاحظنا فالشخصية مرتبطةٌ بالحدث ، إذ لابُدَّ لِكُلّ فعلٍ مِن فاعلٍ ، وهي تتفاعل مع أحداثها حية في

---

[1] إلاَّ أن يُحَاط بكم : أي : إلاَّ أن تُغْلَبوا فلا تقدروا على تخليصه .

تصرُّفاتها ، تصور لنا الوقائع كأنّها مرآة نشاهدها ونعيشها وننسجم داخل كيانها القصصي في انفعالٍ تامّ (١) .

وأمَّا شخصية عزيز مصر كما تكشف عنه الآية الكريمة ﴿ **يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ** ﴾ [يوسف : ٢٩] ، فهي شخصية تميل إلى التَّستُّر ، فعزيز مصر لَمَّا رأى أنَّ يُوسُفَ بريء من ادّعاء زوجته ، وأنّها هي الطالبة له ، وهو الهارب منها ، كتمَ الأمر ، بل طلب من يُوسُفَ أن يكتم الأمر ولا يذيعه لأحد ﴿ **يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا** ﴾ [يوسف : ٢٩] .

وهذا يدُلّ على أنَّ شخصية العزيز كانت شخصية تميل إلى التَّستُّر والتَّحَفُّظ ، وعدم إظهار الفضائح الجنسية ، فإنَّه أمرٌ لا يقبله إنسان ، حتَّى لو عاش في مجتمعٍ جاهليّ .

وأراد أن يدعم هذه التستُّر بطلبه من زوجته أن تستغفر وتتوب ﴿ **وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ** ﴾ .

كَما يُستفاد من هذا الموقف أيضاً ، أنَّ العزيز لم تكن عنده الغيرة القوية حتى يغضب غضبة مضرية ، أو يثور ثورة عارمة ، فينتقم من زوجته التي تعلَّق قلبها بغيره ، وكادت أن تدنس فراشه بهذا المنكر الفظيع .

وهكذا استبان لنا من خلال عرض شخصية العزيز ، وامرأته ، ويُوسُفَ ، بعضٌ من ملامح شخصية العزيز ، فهي شخصية كتومَةٌ للسرّ ، لا تذيع ما يستقبح ذكره في الوقت الذي تعرف جرم الحدث وعظم أمره .

---

(١) راجع القصة في أدب الجاحظ لعبد الله أحمد باقازي : ٩١ ، الطبعة الأولى .

كما أنّها شخصيةٌ فاترةٌ هادئـة ، لا تتحرَّك لتدنيـس عِـرْض ، ولا تهـتّز اهتزازاً مُلْفِتاً لخيانةٍ زوجيةٍ .

" والنّقد الحديث يرى أنّـه على القاصّ أن يعرض علينا أشخاصاً عاملين نراهم بقـوة ، ونفهـم أخلاقهـم ، ونسـايرهم بشـعورٍ سـار إلى آخـر القصـة ، ومعنى ذلك أنَّ أُسلوب القصَّة يكون أجود كُلّما تجلّت شخصياتها متمـايزة ، وتوالت حوادثها وفصولها في أعمال أبطالها وحوارهم " [١] .

وواضِحٌ في قَصَص كِبار الكُتّاب أنّـه لكُلّ شخصية آراؤها التي تكشـف عن سلوكها وحديثها في القصَّة .

ومِنَ العَيْب في القصص الحديث أن يتدخّل المؤلّف تدخُّلاً سافراً بالشرح والتحليل ، وينبغي أن يكون تدخله مستوراً ، وفي أضيق الحدود [٢] .

ورأوا أنَّ تشابـه الشخصيات يرجع إلى أنَّ الكاتب كان يصدر في إحساسـه عن إيمانٍ بالمثال ، والمطلق العام ، لا عن إحساسٍ بالتجربـة الذاتيَّة وتفرُّدها .

وبهذا نـرى [٣] أنَّ النّقـد الحديـث في علاجـه للقصـة العصريـة حـاكى شيئاً مـن أُسـلوب القِصَّـة القرآنيـة ، حيـث إنّـه راعـى في منهجـه النقـدي أنَّ في عـرض الشـخصية عرضـاً دقيقـاً مـن الممكـن أن يستشـف جوانبهـا النفسـية وأحوالهـا وعاداتهـا ، ومـا لهـا مِـن ظـلالٍ وقِيَـم ، ولـن يكـون ذلـك إلاّ برسـم الشـخصية القصصيـة رسمـاً محكمـاً يعـرب عـن حقيقتهـا إعراباً تامّاً .

---

(١) أصول النقد الأدبي ، د . أحمد الشايب ، الطبعة الثامنة : ٣٤٠

(٢) النقد الأدبي الحديث ، د . محمَّد غنيمي هلال : ٥٥١

(٣) تطور الروايـة العربية الحديثة في مصر من ١٨٧٠م إلى ١٩٣٨م : للدكتور عبـد المحسـن طـه بـدر : ١٩٥ ، طبعة عام ١٩٦٣ م .

فكان القرآن الكريم في عرضه لشخصياته نبراساً يستضيء به الكثير من الأدباء ، وما ذاك لشيءٍ إلاّ لإعجابهم بملامحه التصويرية ، وقوة عرضه المحكم .

على أنّنا إذا تأمّلنا القصّة العصرية الحديثة ، رأينا أنّها كثيراً ما تُعنى بالتحليل النفسي لبعض الأبطال ، فكان جانب التحليل النفسي ، كما يرى بعض الباحثين [١] ، يطغى على بقية عناصر الرواية .

إلاّ أنّ هذا التحليل النفسي كثيراً ما رأيناه يقوم على تجسيد كثيرٍ مِنَ المعاني التي عكست نفسية البطل ، وما كان يعانيه من صراعٍ ، مِمّا لاحظناه عند بعض القصّاصين مِن مِثْل نجيب محفوظ ، الذي كان يعتمد كثيراً في توضيح معالم الشخصية بكثيرٍ من الأخيلة والأوصاف التي لها إيحاءات ورموز [٢] .

ولكن القَصّ القرآني الكريم مع استشفافنا لملامح شخصياته بكُلّ يُسْرٍ وسهولةٍ ، إلاّ أنّه لم يعتمد في عرضه على جانبٍ توضيحيّ خيالي إيحائي .

---

(١) الأدب القصصي والمسرحي في مصر في أعقاب ثورة ١٩١٩م إلى قيام الحرب الكبرى الثانية ، للدكتور أحمد هيكل : ١١٢-١١٥ ، الطبعة الثالثة .

(٢) راجع : القصة وتطورها في الأدب العربي ، للدكتور مصطفى عمر : ٣٠٠-٣٠١ الطبعة الأولى .

قُوَّةُ الإحْكَامِ والرَّبط :

والتعبير القرآني في قصَّة يُوسُف عليه السلام ﴿ **وَلَقَدْ هَمَّت بِهِ وَهَمَّ بِهَا** ﴾ [يوسف : ٢٤] . ما يفيد أنَّ امرأة العزيز همَّت بيُوسُف ، لا يصرفها عنه صارف ، ولا يبعدها عنه دافع ، والتعبير بقوله ﴿ **وَهَمَّ بِهَا** ﴾ ما يفيد أنَّه بحكم طبيعته البشرية ربَّما أنَّه مال إليها ، وهنا يظهر السؤال : إذا كانت في هذا الموقف المريب ، ويُوسُف الصّديق له طبيعة بشرية قد أملت عليه أن يسير في هذا الرّكب الزَّائف ، فكيف ينصرف عنها ؟. فتأتي اللفظة القرآنية ﴿ **لَوْلاَ أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبّهِ** ﴾ لتفيد بأنَّ هَمَّ يُوسُف الذي هو بداية الأمر ، ظلّلته رعاية الله عزَّ وجلَّ ، حيث أنَّه لمح الأمارات القاطعة ، والدلائل الناصعة ، فكان خوف الله حافظاً ومانعاً له من أي تسلُّط شرّير ، فإنْ هَمَّت نفسه بسوءٍ استطاع بقوة الإيمان ، وبالعقيدة الرَّاسخة ، أن يكبح زمام نفسه ، ويقيّد هواه ، فلا انزلاق لشيطان ما دام الله سبحانه وتعالى أمام ناظِرَيه ، وما دامت رعاية الله تحيط به ، فالتعبير القرآني بقوله ﴿ **لَوْلاَ أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبّهِ** ﴾ [1] بعد الهَمّ ، فيه قوّة وإحكام ، وإلاّ لَحَارَت النفوس ، وكثرت التساؤلات ، وحارت العقول في فهم هذه الآيات والمعاني الكريمة .

---

(١) برهان ربه : مراقبة الله تعالى ، وتجلّيه عليه بالعصمة .

قال أبو السعود : إنَّ همَّه بها بمعنى ميله إليها بمقتضى الطبيعة البشرية . هذا من باب المشاكلة ، وهي : الاتفاق في اللفظ مع الاختلاف في المعنى ، فالهمُّ منها كان هَمّاً وقصداً، والهمُّ منه كان حديث نفس .

راجع : صفوة التفاسير : ١٣/٦

وقيل : همَّت به جلباً ، وهمَّ بها دفعاً .

وفي قصَّة يُوسُـف : ﴿ **وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّت قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ** ﴾ [يوسف : ٢٥] محكمة تمام الإحكـام ، لأنَّها أوصلت إلى براءة يُوسُف أمـام العزيز ، وكأنَّ هذا المنطوق الإلهي بمثابـة مقدمـة لنتيجة هامـَّة ، قد ترتَّب عليها وضع الأمر في نصابه ، وإحقاق الحَقّ ، ومِنْ ثـمَّ استبان كذب امرأة العزيز وادعاؤها الباطل ، وصِدْقُ يُوسُفَ الأمين .

فمِنَ الثـابت أنَّ يُوسُـفَ وامـرأة العزيـز قـد تسابقا نحـو بـاب القصـر ، يوسُف هارباً من الوقوع في الإثم ، وامرأة العزيز ما تسـابقت إلاَّ لكـي تطلبـه وتضُمَّه إلى صدرها ، وتوغر صدره ، حتَّى يستجيب لطلبها ، ولكـنَّ يوسُـفَ الصّدّيق عليه السلام أسرع في مشيه ، فلم تستطع أن تلحقه حتَّى شَقَّت ثوبـه من خلف ، فكانت المفاجأة ، إذ كان زوجها العزيز عند باب القصر ، وبـدلاً من أن تحكي حالها ، وتصف هواهـا علـى الحقيقـة ، ألصَقَت التُّهمـة الكاملة بيوسُفَ الصّدّيق ، فقالت لزوجها : ﴿ **مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلاَّ أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [يوسف : ٢٥] ، مع أنَّ يُوسُفَ الصدّيق نطق كلمـة الحقّ ، وأبان عن الواقع فقال : ﴿ **هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي** ﴾ [يوسف : ٢٦] إلاَّ أنَّ الأمـر لم ينكشـف تماماً أمـام العزيـز إلاَّ إذا كـانت هنـاك حُجَّة بعيـدة عن إقرار الجاني والمجني عليه ، فالخصم والحكم في آنٍ واحـد ، شـيء لا يقبلـه العقل ، ومِن ثـمَّ شـهد شَاهِدٌ مـن أهـل امـرأة العزيـز ، وكـان طفـلاً صغيراً أنطقه الله لكي يظهر الحقيقة ، فيكون أوثق لبراءة يُوسُف لكونـه من أهلهـا ، وعلى ما يقال ابن خالها [1] ، لقد وضع ميزاناً هو الفيصل في الأمـر ، والحُجّة البالغة في إظهار الحقّ ، فإن كان ثوب يوسف قد شُقَّ مِن أمـام فهـو كـاذب

---

[1] صفوة التفاسير : ١٤/٦ .

في قوله ، وهي صادقةٌ في دعواها ، فهي تدافع عن نفسها بذلك ، وإن كان الثوبُ قد مُزّق من الخلف فهو صادقٌ في قوله ، وهي كاذبةٌ في دعواها ، وذلك لأنَّ الجَذْبَ من الخلف يدلّ على أنها هي الطالبة له ، وهو المُعْرِض عنها .

وعلى هذا فمقدمة الآية الكريمة : ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ ﴾ كانت صائبة تمام الإصابة ، مرتبطةً بالمعنى تمام الارتباط .

ومِن ثمَّ لَمَّا رأى العزيز أنَّ قميص يُوسُف قد قُدَّ مِن دُبُرٍ أيقن تماماً أنَّ ذلك مِنْ صُنْع النساء فقال : ﴿ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ [يوسف : ٢٨] .

وفي قِصَّة يُوسُف : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [يوسف : ٣٠] ، نرى أنَّ موقف النسوة من امرأة العزيز مِن حيث التَّشنيع عليها ، لأنَّ حبَّها لِيوسُفَ مَسَّ شغاف قلبها ، فهُنَّ يرونها في ضلالٍ مبينٍ ، نرى أنَّ هذا المنطوق القرآني الذي يفيد شماتة النسوة وحرصهنَّ على إشاعة السوء ، يناسبه تماماً أن يتحدَّث القرآن الكريم عن شعور تلك النسوة وموقفهن حينما يقعن في شَيءٍ مِمَّا وقعت فيه امرأة العزيز من مراودة يوسف ، ومشاهدة جماله الأخَّاذ ، وخلقته التي تجذب الأفئدة ، لكي يثبت القرآن أنَّ فتنة امرأة العزيز إنَّما هي فتنة فوق الطَّاقة ، حيث أنَّ مَن لاموها شهدن بما ليوسُفَ مِن طلعةٍ هي فتنة للناظرين ، فهو فوق المألوف من البشر ﴿ فَلَمَّا سَمِعَت بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَت إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَئاً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَت اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ للهِ مَا هَذَا بَشَراً

إنْ هَذَا إلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [يوسف : ٣١] ، ففـي الآيـة الكريمـة ﴿ وأَعْتَـدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَئاً ﴾ ما يفيد أنَّهُنَّ جلسن جلسة فيها طمأنينة ، وكـون امـرأة تعطي كُلَّ واحدةٍ منهُنَّ سكّيناً لكي تُقَطّع بها ما قُدّم لَهُنَّ مـن ألـوان الطعـام اللائـي تُقَدَّم للضيوف .

ثُمَّ بعد ذلك يخرج يوسف عليهنَّ ، وبدلاً من أن يُقَطّعنَ أنواع الفاكهـة ليأكلنها ، قطّعن أيديهُنَّ ، كُلُّ هذا يدلُّ على أنَّهُنَّ قد بُهِتْنَ من جماله ، وذهلن من إشراقة وجهه ، وطلعته التي فاقت البشرية جمعاء .

ومِن ثمَّ بينمـا هُـنَّ يجلسـن في أمـنٍ وطمأنينـةٍ علـى المتّكـأ ، إذ تصرَّفـن تصرُّفـاً فيـه وحشـية ، مِمَّـا يـدُلّ علـى سـلب عقولهـن ، وضيـاع تفكـيرهن ، فكانت الآيـة الكريمة بتذييلها الذي قد يوحي برجوعهنّ عن مبدأ التشنيع ولوم امرأة العزيز ﴿ وَقُلْنَ حَاشَ للهِ مَا هَذَا بَشَراً إنْ هَذَا إلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ .

حتّى استردَّت امرأةُ العزيز أنفاسها ، وتعالت صيحتها ، فقالت قولتها : ﴿ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ﴾ [يوسف : ٣٢] .

وهكذا نرى إحكام الربط ، وإحكام العبارة المكينة ، والاتصال الوثيق ، فهو قولٌ متّصِلُ الحلقات ، مترابطُ البنيان ، متآزرُ المعاني يشُدُّ بعضه بعضاً .

وأمَّا قوله : ﴿ ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِـي رَبّـي ﴾ [يوسـف : ٣٧] . فيـه دفـع التباس ، وإزالة شـك ، حتـى لا يتهـم نـبي مـن أنبيـاء الله بمـا حرَّمتـه الأديـان السماوية ، فقال : ﴿ ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبّي ﴾ ، على معنـى : أنَّ مـا بـرع فيه من تفسير الأحلام حينما كان في السّجن ، وقد تحقّـق بتفسيره ، وصـدق تعبيره ، ليس من باب الكهانة أو الاطلاع على الأُمـور الغيبيـة ، أو التنجيـم ، أو الخرافات ، وإنّما هي من الفيوضات الإلهية ، والنورانيات الربَّانيَّة المشرقة ،

فإنَّ الله تبارك وتعالى يوحي إليه بهذه المعاني ، ويلهمه بهذه التفسيرات المنامية ، وعلى هذا فلا يُتَّهم بريبة ، لأنَّه وقع في محظور محرَّم ، وقد يصرف عن نفسه شبهة أخرى ، وهي أنَّه وحده المُلْهَم ، ووحده الذي يفيض الله عليه بإشراقاته ، ووحده الذي ينبغ في تفسير الأحلام ، يدفع عن نفسه هذه الريبات كلها ، فيرى أنَّ الله ما يخصّ أحَداً من خلقه بفضلٍ ، ويعطيه نعماً ، فيفتح عليه من ملكه وملكوته إلاَّ بعد أن يذلّ نفسه لله ، ولا يخضع لأحَدٍ إلاَّ له ، ومِن ثمّ يعقب على ذلك فيقول : ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * واتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ ﴾ [يوسف : ٣٧-٣٨] .

ثُمَّ يزدادُ يوسُف في خضوعه لله ، فتكون نصيحته لصاحبيه في السجن وتوجيهه لهما ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَّا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ للهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِينُ الْقَيِمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٣٩-٤٠] .

وهكذا استعرض حُجَجه الدَّالّة على وجود الله سبحانه وتعالى وسلطانه وقوَّته ، حتى يثمر وعظه ، وهكذا نرى قوّة الإحكام والرَّبط في هذه الآيات .

وأمَّا قوله ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدّيقُ ﴾ [يوسف : ٤٦] فالذي نجا من السجن مع يوسُف وهو الساقي ، لكي يعبّر له رؤيا الملك ، نرى أنَّه قبل أن يطلب منه تعبير الرؤيا قدَّم الثناء على يوسف بقوله : ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدّيقُ ﴾ قبل أن يسأله ، ولا شكَّ أنَّ ذاك فيه تطييبٌ لخاطر يوسف ،

وتهيئة نبيلة ، حتّى يجيبه على مهلٍ ، ويعطيه التفسير الصحيح بنفسٍ راضيةٍ ، وروحٍ طيّبةٍ ، وليس معنى ذلك أنّه خلع عليه الثناء جزافاً ، طمعاً في أن يكسب نواله ، أو يحصل على معروفه ، وإنّما خلع عليه هذه الخلعة فسمّاه صِدّيقاً لأنّه لمس ذلك يوم جرَّب صدقه في تعبير المنام الذي رآه في السجن .

فكلمة الصّدّيق محكمة تمام الإحكام ، مرتبطةٌ تمام الترابط ، لها مدلولها وإشارتها ، ومن ثمَّ اطمأنت نفس يوسف ، فعبَّر له الرؤيا ، وأفاده بما زعموا أنّه أضغاثُ أحلام .

وأمّا قوله : ﴿ **مَعَاذَ اللهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ** ﴾ [يوسف : ٧٩] ، حينما احتجز يوسفُ بنيامين ، تألّم إخوته أشدّ التألُّم و ﴿ **قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [يوسف : ٧٨] فردَّ يُوسُف ﴿ **مَعَاذَ اللهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ** ﴾ .

فالتعبير بقوله : ﴿ **وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ** ﴾ ، محكمٌ تمام الإحكام ، حيث أنَّ بنيامين لم يسرق الصُّواع ، فكان التعبير بقوله : ﴿ **وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ** ﴾ أجمل وأصدق من أن نأخُذَ إلاَّ مَن سرق في غير القرآن ، حتى يتحرَّز يوسف عن الكذب ، وفي الوقت ذاته تنفع الحيلة التي صنعها ، والأُسلوب الذي اتّخذه حيال إخوته .

ونرى أنّه حينما اجتمع الشمل ، وصادف إخوة يُوسُفَ يُوسُفَ ، وتمَّ اللقاء ، وجاء البشير إلى يعقوب ، فارتدَّ بصيراً ، وحينذاك أحسَّ إخوة يوسف بضميرٍ يؤنّبهم ﴿ **قَالُواْ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ** ﴾ [يوسف : ٩٧] ، فبدلاً من أن يمد يعقوب يده إلى السماء ، ويطلب لهم العفو

والصفح عقب طلبهم الاستغفار ، أجَّل ذلك إلى حينٍ حتَّى قال : ﴿ **سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴾ [يوسف : ٩٨] .

وإنِّي أرى أنَّ تأخير الاستغفار يَدُلُّ على أمرين :

الأوَّل : يدلُّ على أن يعقوب راغِبٌ في الصَّفح عنهم .

الثاني : يدُلُّ على عِظَم ما صنعوه مع يوسف .

فإنَّه لو طلب لهم الاستغفار فوراً ، رُبَّما ظنَّ إخوة يوسف أنَّ يعقوب قد تغاضى كُلِّيةً عن فعلهم ، ونسي على الإطلاق صنيعهم ، ولكن إرجاءه الاستغفار وتمهُّلَه ، يدلُّ على أنَّ نفسية يعقوب لا زال فيها شيء ، فهو يُهَيِّئ نفسه ويمهّدها حتى يمحو ما فيها ، ويضيع أثر هذه الأفعال التي ارتكبها إخوة يوسف ، فإذا برق البرق ، وانكشفت غياهب الظلمات ، كان لا مفرَّ من أن يحِنّ يعقوبُ إلى أولاده ، فيطلب العفو والغفران لهم .

فالتعبير القرآني : ﴿ **سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي** ﴾ محكمٌ مرتبطٌ تماماً بوقائع القصَّة ، ومدلولاتها ، وهول أحداثها ، وفظاعة وقائعها .

ما يُستفادُ من الآيـات :

﴿ الـر تِلْكَ أَيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ : هذه آيات الكتاب المبين ، لِمَن تلاه وتدبّر ما فيه من حلالـه وحرامـه ، وأمـره ونهيـه ، وسـائر مـا حـواه مـن صنوف معانيه .

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَـاهُ قُرْءَاناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ : أنزلناه عربياً بلغتكم كي تفهموه وتحيطوا بمعانيـه ، وتستعملوا فيـه عقولكـم ، فتعلمـوا أنَّ هـذا القَـصّ المعجز مِمَّن لم يتعلّم القَصَص ، النّبيّ الأُمّيّ ، لا يتصور إلاّ بالإيحـاء مـن عليـمٍ قديرٍ .

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ : كانت هذه السـورة أحسـن القصص لانفرادها عن سائر السور بما فيهـا مـن ذكـر الأنبيـاء ، والصـالحين ، والملائكة ، والشياطين ، والإنس ، والجن ، والأنعام ، والطّير ، وسائر الملـوك والممالك ، والتّجّار ، والعلماء ، والخلاص من المرهوبِ إلى المرغوب ، وذِكْـرِ الحبيبِ والمحبوب ، والعجائب التي تصلح للدنيا والدين .

وقيـل : كـانت أحسـن القَصَـص لأنَّ كُـلَّ مَـن ذُكِـرَ فيهـا كـان مآلـه السعادة ؛ انظر إلى يوسف وإخوتـه ، وامـرأة العزيـز ، والملـك أسـلم بيوسـف وحَسُـنَ إسـلامه ، والسـاقي صـاحب الرؤيـا ، فمـا كـان أمـر الجميـع إلاّ إلى الخير ...

﴿ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْءَانَ ﴾ : بإيحائنا إليك هذا القرآن .

﴿ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ : وإن كنت يا محمَّد من قبل أن نوحيه إليك لم تخطر ببالك و لم تقرع سمعك هذه القِصَّة ..

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ : ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ ﴾ : يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، عليهم السلام : ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً ﴾ : رأيت في منامي أحَدَ عشر كوكباً ، وهم إخوة يُوسُفَ ، وكانوا أحدَ عشرَ أخاً ، والشَّمْس (أُمُّه) والقمر (أبوه) .

وفي أدبٍ جَمّ وبرّ وطواعية ، يُخاطب يوسُفُ أباه : (يا أبَتِ) فيجيبه يعقوب في رفقٍ وشَفَقَةٍ وحُبّ (يَا بُنَيَّ) تصغير التحبيب والتقريب والشفقة ﴿ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ ﴾ .

﴿ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ : وليس هنا شيءٌ من التكرار ، إنّما هو كلامٌ مستأنَفٌ على تقدير سؤالٍ وقع جواباً له ، كأنَّ يعقوب عليه السلام قال له عند قوله : ﴿ رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ : كيف رأيتها ؟ سائلاً عن حال رؤيتها . فقال : ﴿ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ .

والسجود هُنا سجود كرامة ، كما سجدت الملائكة لآدم . أو أنه سجود (تحية) ، وكان السجود في ذلك الوقت تحية بعضهم لبعض [1] .

﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ : ﴿ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْداً ﴾ : فيحتالوا حيلة ، فَهِمَ يعقوبُ عليه السَّلام من رؤياه

---

(1) البحر المحيط : ٦/٢٣٨

وإخوة يوسف : " روبيل ، ويهوذا ، وشمعون ، ولاوي ، وزبولون ، ويساخا ، وزان ، ونفتالى ، وكاذ ، وياشير ، وبنيامين " .

قال المفسّرون : الكواكب الأحد عشر كانت إخوته ، والشمس والقمر أبواه ، وكان سنّه اثنتي عشرة سنة ، وبين هذه الرؤيا واجتماعه بأبيه وإخوته في مصر أربعون سنة .

أنَّ ا لله يصطفيه لرسالته ، ويُفوِّقه على إخوته ، فخافَ عليه حسدهم وبغيهم ، والأنبياء مُلْهَمُون ، ونبَّهَ يعقوبُ عَلى سبب الكَيْد ، وهو ما يزيّنه الشيطان للإنسان ويُسَوّله له ، وهو ظاهر العداوة ، كما فعل بآدم عليه السلام وحواءَ ، فلا يألوا جهداً في تسويلهم وإثارة الحَسَد فيهم حتّى يحملهم على الكيد [١] .

﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ : ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ : يقوله يعقوبُ ليوسُفَ لَمَّا قَصَّ عليه رؤياه ، أي مثل ذلك الاجتباء والاصطفاء ، وهو ما أراه من تلك الرؤيا التي دلَّت على جليل قدره ، وشريف منصبه ، ومآله إلى النبوة والرسالة والملك .

﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾ : أي كما اجتباك من قبل بالرؤيا التي دلَّت على جليل قدرك ، وشرف منصبك ، يجتبيك

---

(١) حاشية الشهاب على البيضاوي : ١٥٦/٥

وفي صحيح البخاري : قال ﷺ : (**إذا رأى أحدكم الرؤيا يحبها فإنّها من ا لله فليحمد ا لله عليها وليحدّث بها . وإذا رأى غير ذلك مِمَّا يكره فإنّما هي من الشيطان فليستعذ با لله من الشيطان ومن شرّها ولا يذكرها لأحَد ، فإنّها لن تضرّه**) .

ومعنى أنّها من الشيطان أنَّه يحضرها أو أنَّها تسره ، ويقال الرؤيا للمحبوب ، والحلم اسم للمكروه ، فليتعوَّذ با لله من الشيطان الرجيم من شرّها ويتْفُل ثلاثاً وليتحوَّل إلى جنبه الآخر فإنّها لا تضره بإذن ا لله . وسُمِّيَ تأويل الرؤيا تعبيراً لأنَّه يئول أمره إلى ما رأى في منامه .

ربُّك للنبوة ، وغرائب الرؤى ، والعلم ، والحُكْم ، والملك ، وكانَ يُوسُفُ أعْبَرَ النّاسِ .

﴿ **وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ** ﴾ : بالنبوة ، وأن يصل نعمة الدُّنيا بنعمة الآخرة ، في الدُّنيا بالنبوة والملك ، وفي الآخرة عُلُوّ الدرجات في الجنّة .

﴿ **وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ** ﴾ : يريد به سائر بنيه (الأسباط) ، ولعلّ يعقوبَ استدلَّ على نبوَّتهم بالكواكب ، فهي تهدي المسافر في دياجير الظّلام وكذلك الأنبياء .

أو لعلَّ ذلك ينطبق على نسلهم ، فمنهم جاء موسى ، وعيسى ، ويونس ، وكوكبةٌ من الأنبياء [1] .

﴿ **كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ** ﴾ : كذلك يتم نعمته عليك وعلى إخوتك بالنبوة والرسالة ، كما أتمّها على أبويك من قبل بالنبوة والرسالة : إبراهيم ، وإسحاق ، وفي هذا إشارة إلى أنَّ الأبوين بمعنى الأب والجد ، وتُطلَق على الجد وحده ، لأنَّ إسحاق جَدّ يُوسُفَ ، وإبراهيم جدّه أيضاً ، كما قال تعالى ﴿ **قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَـهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ** ﴾ .

وإتمام النعمة على إبراهيم أيضاً تجلّت في (الخُلّة) ﴿ **وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً** ﴾ وعلى إسحاق بإخراج يعقوب والأسباط من صلبه ، وجعل فيهم النبوة والكتاب ..

---

(١) وآل : معناه أهل ، ولكن آل : يستعمل فيمن له خطر ، كآل البيت ، وآل يعقوب ، ويقال : أهل الجاهل ، وأهل العاصي .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ : (عليمٌ) بمن يستحق الاجتباء ، (حكيمٌ) يفعل الأشياء على ما ينبغي ..

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴾ : آياتٌ للسائلين في قصتهم ، دلائل على قدرة الله عزَّ وجلَّ وحكمته ، لِمَن سأل عن قصّتهم ، وفيها من عجائب وعبر آيات للسائلين ، ودلائل للمفكرين ، وآيات على نبوة النَّبيّ ﷺ للذين سألوه من اليهود عنها فأخبرهم بالصحة من غير سماعٍ مِن أحَد ، ولا قراءة كتاب .

والمراد بإخوة يوسف عِلاَّته العشرة . و(العلاَّت) : هم الإخوة لأبٍ ، ولعلَّ تسمية العلاَّت ، لأنَّ كُلَّ زوجة هي عِلَّة للزوجة الأُخرى كما يقال (الضرائر) ، كما أنَّ (الأعيان) الإخوة الأشقاء لأب وأم ، و (الأخياف) الإخوة لأُمّ ، وكان روبيل أكبرهم ، وهو (ويهوذا ، وشمعون ، ولاوي ، وزبولون ، ويساخا) شقائق ، أُمُّهم واحدة ، وهي (ليا) بنت ليان بن ناهر ابن آزر ، وهي بنت خال يعقوب ، [وذان ، ونفتالى ، وكاذ ، وياشير] أربعة من سريتين كانتا لليا ، وأختها راحيل ، فوهبتاهما ليعقوب ، فجمع بينهما ، ولم يحل الجمع بين الأختين لأحد بعده ، واسما السريتين فيما قيل : (ليا ، وتلتا) ، وتوفيت أُمّ الستَّة (ليا) فتزوج يعقوب بعدها أختها (راحيل) فولدت له (يوسف ، وبنيامين) وماتت في نفاسه [1] .

---

[1] البحر المحيط : ٦/٢٤١

وإنَّما قالوا : (لَيُوسُفُ وأخوه) وهم جميعاً إخوة ، لأنَّ أُمَّهما كانت واحدة ، وهي راحيل بنت ليان .

﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ : يقول جلَّ شأنه : لقد كان في يُوسُفَ وإخوته آياتٌ لمن سأل عن شأنهم حين قال إخوة يُوسُف ﴿ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ ﴾ شقيقه بنيامين ﴿ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ والحال أنَّا جماعة أقوياء أحق بالمحبة من صغيرين لا كفاية فيهما ، والعُصْبَة والعصَابة : العشرة فصاعداً ، سُمُّوا بذلك لأنَّ الأمور تعصب بهم .

وكان يعقوب يحبُّ (يوسف وبنيامين) بسبب صغرهما [1] ، وموت أمّهما ، وحُبُّ الصغير والشفقة عليه أمرٌ مركوزٌ في الطباع ، قيل لامرأةٍ : أي بنيكِ أحبّ إليك ؟ قالت : الصغير حتى يكبر ، والغائب حتى يقدم ، والمريض حتى يفيق . فذهبت مثلاً .

ولكن لماذا أقدم يعقوب عليه السلام على تفضيل يوسف وبنيامين على بقية أولاده وهو يعلم أنَّ تفضيل بعض الأولاد على بعض يورث الحسد والحِقد والضغينة ؟ وشريعة السماء في كُلّ زمانٍ ومكان توجب العدل بين الأبناء ، والحديث الشريف (**اتَّقُواْ الله واعدلوا بين أبنائكم**) ، (**اذهب فإني لا أشهد على باطل**) ، ولعلَّ التخريج في مثل هذا أنَّ المحبَّة ليست مِمَّا يدخل في وسع الإنسان ، ولا يكلّف الله نفساً إلاَّ وسعها ، والحديث الشريف : (**اللَّهُمَّ هذا قسمي فيما أملك ، فلا تؤاخذني فيما لا أملك**) .

---

[1] البحر المحيط : ٦/٢٤١
﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ ﴾ لم يريدوا ضلال الدين ، إذ لو أرادوه لكفروا ، وإنَّما أرادوا أنَّه على خطأٍ بَيّنٍ في إيثار يوسف وأخوه عليهم العشرة ..

ويعقوب لا حيلة له في هذا الحب وفرطه ، في الوقت الذي كان فيه يتحرّى العدل فيما يملك بين بنيه ، ويخشى عليهم الحسد والعين ﴿ **يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ** ﴾ .

﴿ **إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ** ﴾ : لعدوله عن الفاضِلِ إلى المفضول ، وكان يعقوب يميل إلى يُوسُف كثيراً ، لِمَا يرى فيه من مخايل النجابة ، فلمَّا رأى الرؤيا تضاعفت محبَّته له ، بحيث لم يعد يصبر عنه ، فكان يضمه كُلَّ ساعة إلى صدره ، وكأنَّ قلبه أيقن الفراق ، وكأنَّه كان يحس المؤامرة ، وكان إخوته يحسدونه ، حتّى حملهم ذلك على التعرُّضِ له .

﴿ **اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ** ﴾ : قاله إخوة يوسف ﴿ **اقْتُلُواْ يُوسُفَ** ﴾ : ويبدو أنَّ هناك ثمة اعتراض على القتل [1] ، فقالوا ﴿ **اطْرَحُوهُ أَرْضاً** ﴾ : بعيدةً عن العمران .

﴿ **يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ** ﴾ : يصْفُو لكم وجه أبيكم عن اشتغاله بِيُوسُفَ ، ويقبل عليكم بكُلِّيَّته ﴿ **وَتَكُونُواْ مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ** ﴾ : تائبين إلى الله تعالى عمَّا جنيتم ، وصالحين مع أبيكم ، يصلح ما بينكم وبينه بعذرٍ تمهدونه ، وصالحين في أمر دنياكم بصلاح أموركم وانتظامها بعد أنْ يخلو لكم وجه أبيكم لا يلتفت عنكم إلى غيركم ، ولا ينازعكم في محبَّته أحَد ،

---

(١) الشهاب على البيضاوي : ٥/١٥٩

وما أقدم عليه إخوة يوسف كان قبل أن يوحى إليهم ، إذا ثبت بأنَّهم أنبياء ، والعصمة للأنبياء بعد النُّبوة ، وإلاَّ فالحسد من الكبائر ، وخطاب الأب بقولهم ﴿ **إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ** ﴾ عقوقٌ ظاهرٌ ..

غشاوة وعمى يُداخل النُّفوس المريضة ، فتغفل عن وجه الحق حتّى تقع في الباطل .

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ : ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ ﴾ : يهوذا ، وكان أحسنهم رأياً وعقلاً ، إذ لم ير القتل ولا طرحه في أرضٍ خالِيَةٍ قفراء ، بل في بئرٍ يحتاج إليها السابلة ، وتشرب من مائها ، فإنّه أقرب لخلاصه ، وفيه من حُسْنِ الرأي ما لا يخفى .

لطيفةٌ :

في قوله تعالى : ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ ﴾ دون التعيين بأسمائهم ، إذ لم يُسَمّ منهم غير يُوسُفَ عليه السلام ، وإنّما ذكروا بعنوان " إخوته " ، والإضافة إلى يُوسُفَ تشريفٌ له في مقابلة ما ناله من الأذى ، وستر على المسيء بعدم ذكره باسمه لما فيه من التفضيح .

﴿ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ ﴾ : في قعره ، سُمّي به لغيبوبته عن أعين الناظرين ، والجُبُّ : البئر التي لا حِجارة فيها من الجَبُّ وهو القطع ، وغيابتها حفرتها وقرارها ، وسُمّيت الحفرة غيابة لغيبتها عن النظر ، وهذا الجُبّ بئر ببيت المقدس [1] .

﴿ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ ﴾ : يأخذه بعض مارّة الطريق من المسافرين .

﴿ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِين ﴾ : عازمين على أن تفعلوا ما يُفرّقُ بينه وبين أبيه .

---

[1] الطبري : ١٥٦/١٢

الجُبُّ : البئر الكبيرة التي لم تطو ، وسُمِّيَ بذلك لأنّه جُبَّ أي قُطِعَ ولَمْ يُطْوَ .

﴿ **قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ** ﴾ : بعد أن استقرَّ رأيهم على التفريق بين يوسف وأبيه ، أعملوا الحيلة على يعقوب ، وتلطَّفوا في إخراجه معهم ، ﴿ **أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ** ﴾ ، ﴿ **وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ** ﴾ : ونحن نشفق عليه ونريد له الخير ، أرادوا استنزال يعقوب عن رأيه وليُغيِّر وجهة نظره فيهم بعد أن شمَّ رائحة الحسد والمؤامرة منهم .

﴿ **أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ : أرسله معنا إلى الصحراء (يَرْتَعِ) على معنى يفتعِل من الرَّعي ، ويسع ، وينشط ، ويلعب بالنصال ، أي رمي السّهام ، والاستباق ، وهذا مباح يحسن لتمرّنهم به على الحرب ، وفي المسابقة ورمي السّهام ما فيه من إحمام النّفس ، وإنعاش قوّة العمل . ﴿ **وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ : من أن يناله مكروه .

﴿ **قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُواْ بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ** ﴾ :

﴿ **إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُواْ بِهِ** ﴾ : لشدَّة مفارقته عليَّ ، وقِلَّة صبري عنه . وقدَّم يعقوب من المبرّرات التي تمنعهم من التفكير في أخذ يوسف :

١ - الحزن الذي سيلحقه بغياب يوسُف ولو لبرهة وجيزة .

٢ - الخوف عليه من الذئب أن يأكله إذا غفلوا عنه .

﴿ **وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ** ﴾ : والبلاء موكل بالمنطق ، فقد لَقَّنَ يعقوبُ الجواب عن غير قصد ، فإنَّ إخوة يوسف لم يعلموا أنَّ الذئب يأكل الناس ، فلمَّا لقَّنهم (إني أخاف أن يأكله الذئب) قالوا : أكله الذئب ؛ وكانت الأرض مذأبة : أي كثيرة الذئاب .

والذّئب مشتّقٌ من تذاءبت الريح إذا هبَّت من كُلّ جهـة ، لكونـه يـأتي كما تأتي .

﴿ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ : لاشتغالكم بالرتع واللعب ، وعدم انتبـاهكم ليوسف فيأكله الذئب وأحزنُ حُزْنَ الأبـد ، وخصَّ يعقوبُ الذّئبَ لأنـّه السبع الغالب على قطره .

لّما شقَّ على يعقوب ما فعله بنوه بيُوسُفَ ، عمـدوا إلى ذئـبٍ اصطـادوه وجـاءوا بـهِ إلى يعقـوب مقيّـداً ، فقـال لهـم يعقـوب أطْلِقُـوهُ ، فـأطلَقُوه ، ويعقوبُ يقولُ له : أدن أدن ، حتّى ألصق خـدَّه بخَـدّه . فقـال لـه يعقـوبُ : أيُّها الذّئب : لِمَ فجعتَنِي بولدي ، وأورثتني حزنـاً طويـلاً ؟ ثُـمَّ قـال : اللّهُـمَّ أنطقه ، فأنطقه الله تعالى ، فقـال : والـذي اصطفـاك نبيّاً مـا أكلـت لحمـه ، ولا مزَّقت جلده ، ولا نتفت شعرة من شعراته ، ووالله مـا لي بولـدك عهـد ، وإنّما أنا ذئبٌ غريبٌ أقبلتُ مِن نواحي مصر في طلـب أخٍ لي فُقِـدَ فـلا أدري أحيٌّ هو أم مَيّت ، فاصطادني أولادك وأوثقوني ، وإنَّ لحـوم الأنبيـاء حُرّمَـت علينا ، وتالله لا أقمت في بلادٍ يكذب فيها أولاد الأنبياء .

﴿ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْـبُ وَنَحْـنُ عُصْبَـةٌ إِنَّـا إِذاً لَخَاسِـرُونَ ﴾ : قالـه إخوة يُوسُف ليعقوب ، لئن أكله الذئب ونحن أحَدَ عشرَ رجلاً ، وهم العصبـة ﴿ إِنَّا إِذاً لَخَاسِرُونَ ﴾ : إذ كُنَّا لا نقدر على دفع الذئب عـن أخينـا ، فنحـن أعجز أن ندفعه عن أغنامنا ونستحق أنْ يُدْعى علينا بالخسار .

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ وَأَجْمَعُواْ أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْـهِ لَتُنَبّئَنّهُم بِـأَمْرِهِمْ هَـذَا وَهُـمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ : وفـائدة هـذا الوحــي تأنيســه

وتسكين نفسه ، وإزالة الغم والوحشة عن قلبه ، بأنّه سيحصل له الخلاص من هذه المحنة ، ورُبَّ محنة في ضمنها منحة .

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ ﴾ : وعزموا على إلقائه في غيابة الجُبّ ، بعد أن أوسعوه لكماً وضرباً ، وهو يستغيث ، وهم يقولون له تهكُّماً : (ادع الأحد عشر كوكباً فلتنجك مِنّا) ، وهكذا حتى كادوا أن يقتلوه ، فقال لهم يهوذا : أما عاهدتموني أن لا تقتلوه ، فأتوا به إلى بئرٍ قفرٍ موحشٍ مأوى للحيَّات والهوام ، فربطوا يديه وجرَّدوه من قميصه ، فلمَّا بلغ نصف البئر قطعوا الحبل وألقوه ، وكان في البئر ماء فسقط فيه ، ثُمَّ آوى إلى صخرةٍ كانت فيها فقام عليها يبكي .

و﴿ غَيَابَتِ الْجُبّ ﴾ : شِبْهُ لَجَفٍ في البئر ، واللجف الناحية من الحوض أو البئر يأكله الماء فيصير كالكهف ، وكُلّ شيءٍ غُيِّبَ عنك فهو غيابة ، ومنه قيل للقبر غَيابة ، قال الشاعر :

فإنْ أَنَا يَوْماً غَيَّبَتْنِي غَيَابَتِي ... فَسِيرُواْ بِسَيْرِي فِي الْعَشِيرَةِ وَالأَهْلِ

والجُبُّ : الرَّكيَّة التي لَمْ تُطْوَ ، فإذا هي طُوِيَت فهي بئر ، وسُمّيَت جُبّاً لأنّها قُطِعَت في الأرضِ قَطْعاً [1] .

وكانوا بذلك يريدون أن لا يلحقه نظر الناظرين .

---

(١) وهذه أسماء البئر نقلاً عن كتاب فقه اللغة وسر العربية ، لأبي منصور الثعالبي :
القَليبُ : البئر العاديَّةُ التي لا يعلم لها صاحبٌ ولا حَافِرٌ .
الجُبُّ : البئر التي لَم تُطْوَ . الرَّكِيَّةُ : البئر التي فيها ماء قَلَّ أو كَثُر .
الظَّنُونُ : البئر التي لا يدرى أفيها ماءٌ أم لا . العَيْلَمُ : البئر الكثيرة الماء .
القَلْزَمُ : البئر كثيرة الماء . الرَّسُّ : البئر الكبيرة .
الضَّهُولُ : البئر التي يخرج مَاؤُهَا قليلاً قليلاً .

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ : أوحى إليه في صغره كما أوحى إلى يحيى وعيسى عليهم السلام ، فألقى في روعه عن طريق الإلهام ﴿ لَتُنَبِّأَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا ﴾ : لتحدّثنّهم بما فعلوا بك وهم لا يشعرون أنّك يُوسُف لعلوّ شأنك ، وبعده عن أوهامهم ، وطول العهد المغير للأحوال والهيئات ، وذلك إشارة إلى ما قاله لهم بمصر حين دخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون : ﴿ هَلْ عَلِمْتُمْ مَّا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ : وهذه بشارة ليوسُفَ الصّدّيق ، وإيناسٌ له ، وتطييبٌ لخاطره جزاء ما أصابه من الكرب العظيم .

نزل جبريل عليه السلام على يُوسُفَ ، وهو في الجُبّ فقال له : ألا أُعَلّمك كلماتٍ إذا أنت قلتهنّ عجّل الله خروجك من هذا الجُبّ ؟ فقال : نعم ! فقال له : قُل : يا صانع كُلّ مصنوع ، ويا جابر كُلّ كسير ، ويا شاهِد كُلّ نَجْوى ، ويا حاضر كُلّ ملإ ، ويا مُفَرّج كُلّ كربة ، ويا صاحب كُلّ غريب ، ويا مؤنس كُلّ وحيد ، آتني بالفرج والرجاء ، واقذف رجاءك في قلبي حتّى لا أرجو أحَداً سواك ، فردّدها يُوسُفُ في ليلته مراراً ، فأخرجه الله في صبيحة يومه ذلك من الجُبّ .

فقالت الملائكة : إلهنا ! نسمع صوتاً ودُعاءً ، الصوتُ صوتُ صَبيّ ، والدُّعاءُ دُعاءُ نَبيّ [1] .

---

(1) القرطبي : ٩/١٤٤

والبئر التي أُلْقِيَ فيها يُوسُفَ بين مصر ومدين على بُعْد ثلاثة فراسخ من مقام يعقوب عليه السلام .

﴿ وَجَاءُواْ أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴾ : آخر النهار ، والعشاء من صلاة المغرب إلى العتمة . وإنّما جاءوا عشاءً ليكونوا أقدر على الاعتذار في الظُّلْمَة ، ولذا قيل : " لا تطلب الحاجة بليلٍ ، فإنَّ الحياء في العينين " .

رُوِيَ أنَّ يعقوبَ عليه السلام لَمَّا سمع بكاءهم قال : ما بكم ؟ أَجَرَى في الغنم شيء ؟ قالوا : لا . قال : فأين يُوسُف ؟ قالوا : ذهبنا نستبق فأكله الذئب ، فبكى وصاح ، وخرَّ مغشياً عليه ، فأفاضوا عليه الماء فلم يتحرَّك ، ونادوه فلم يجب ، ولقد وضع يهوذا يده على مخارج نَفَسِهِ فلم يُحِسّ بِنَفَس ، ولم يتحرَّك له عِرقٌ ، فقال لهم يهوذا : ويلٌ لنا مِن دَيَّانِ يوم الدّين ، ضَيَّعْنا أخانا ، وقتلنا أبانا ، فلم يُفِق يعقوبُ إلاَّ بِبَرْدِ السَّحَر .

﴿ قَالُواْ يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ : ﴿ ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ ﴾ : أي على الأقدام أيُّنا أشدُّ عَدْواً ﴿ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا ﴾ : وفي هذا دليلٌ على صِغَرِ يُوسُف حيث لم يشاركهم العَدْو ، ويؤيده قول يعقوب عليه السلام : ﴿ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ ﴾ ، وقولهم : ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ وتعلُّقه بالحبل عندما أدلت السيارة دلوها ، فلو كان كبيراً لانقطع الحبلُ به ، وقول الوارد : هذا غلام ، وقول العزيز: عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ، وكُلّ هذه التخريجات تقطع بأنَّ يُوسُفَ كان في سِنّ الحداثة ، ولعلّه في الثانية عشرة كما أيّدته الروايات .

﴿ فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ : أي ما أنت بمصدق لنا ولو كنا صادقين ، لِمَا غَلَبَ عليك مِن تُهْمَتِنا وكراهتنا ليوسُفَ وإنّا نحوكُ له المؤامرات ، وندبر له المكائد .

رُوِيَ أنَهم أخذوا سخلة فذبحوها ، ولطخوا قميصَ يوسف بدمها ، وقالوا ليعقوب : هذا قميصُ يوسُف ، فأخذه ولطخ به وجهه وبكى ، ثُمَّ تأمَّله فلم يرَ خرقاً ، فاستدلَّ بذلك على خلافِ ما زعموا ، وقال لهم : متى كان الذّئبُ حليماً يأكُل يُوسُف ولا يخرقُ قميصه ؟! .[1]

﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَا للهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ : ﴿ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ : ذبحوا سخلة أو جدياً ولطخوا القميص به ، ولمّا أرادوا أن يجعلوا الدَّمَ علامة على صدقهم ، قرن ا لله بهذه العلامة علامة تعارضها ، وهي سلامة القميص من التمزيق ، ولمّا تأمَّل يعقوبُ عليه السلام القميصَ فلم يجد خرقاً ولا أثراً استدلَّ بذلك على كذبهم ، وقال لهم : متى كان هذا الذّئبُ حليماً يأكُلُ يوسُفَ ولا يخرقُ القميص ؟! .

---

(١) البحر المحيط : ٢٥٠/٦

عِشاءً يبكون : العشيّ : مِن زوال الشمس إلى الصباح . والعِشاء : مِن بَين صلاة المغرب إلى العتمة . العشاءان : المغرب والعتمة . والعشا : ظلمة تعرض في العين .

وقيل : بل (**جاءوا أباهم عشاءً يبكون**) : جمع عُشوة – بالضم – بمعنى شُعلة النّار ، عبارة عن سرعتهم لابتهاجهم بما فعلوا من العظيمة ، وافتعلوا من العضيهة . أو أنّهم عَشَوْا مِن البكاء ، أي كاد يَضْعُفُ بصرُهُم من البُكاء والنحيب .

والأظهر : أنّه جمع عُشوة ، مثلّث العين ، وهي ركوب أمرٍ على غير بصيرة ، يُقَال : أوطأه عُشْوَة : أي أمراً ملتبساً يوقعه في حيرة وبلية ، فيكون تأكيداً لكذبهم .

(شهاب : ١٦٢/٥)

وفي هذا دليل على أنَّ الجريمة الكاملة لم توجد منذ فجر الخليقة ، ومنذ قابيل وهابيل ، بل لابُدَّ للجاني أن يترك ولو بصمة أو أثراً ، مهما كان تافهاً يدلّ على جريمته ، ولا سيما في جرائم القتل وسَفْك الدماء .

وقرأ الحسن وعائشة : (بدم كَدِبٍ) بالدال غير المعجمة ، أي [بدمٍ طريٍ] .

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً ﴾ : والتسويل : تزيين النَّفْس للمرء ما يحرص عليه ، وتصوير القبيح بصورة الحسن [1] .

﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ : وهو الصبر الذي لا شكوى فيه إلى الخلق ، ولا جزع من مقادير الله ، بل الصبر والتسليم ، ولِذا لَمَّا سُئِلَ عليه الصلاة والسَّلام عن سبب سقوط حاجبيه على عينيه قال : " طولُ الزمانِ ، وكثرةُ الأحزانِ " ، أوحى الله إليه : أتشكو إلى غيري ؟ فقال : يا رب خطيئة ، فاغفر لي .

﴿ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ : هو سبحانه الذي يُطلَبُ منه العون على احتمالِ ما تصفون من هلاكِ يوسُفَ ، والصَّبرِ على البلاءِ .

على أنَّ ما قاله يعقوبُ ليس من باب الشكوى والتَّبَرُّم ، وإنَّما هو إخبارٌ عن الحال بلا تسَخُّط ولا اعتراض ، وهذا لا ينافي الصبر ولا يصادمه بحالٍ .

---

[1] (سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً) : التسويل : تزيين النفس للمرء ما يحرص عليه ، وتصوير القبيح بصورة الحسن . من السَوَل - بفتحتين - وهو استرخاء في العصب ، فكأنَّ المسول بذله فيما حرص عليه وأرخاه له بتزيينه .

قال الثوري : " من الصبر أن لا تُحَدّث بوجعك ، ولا بمصيبتك ، ولا تزكي نفسك " [١] .

وروى ابن عباس أنَّ النَّبيَّ ﷺ لَمَّا دخل على الأنصار سألهم : (**أمؤمنون أنتم ؟**) فسكتوا . فقال عمر : نعم يا رسول الله . قال : (**وما علامة إيمانكم ؟**) قالوا : نشكر على الرخاء ، ونصبر على البلاء ، ونرضى بالقضاء . فقال ﷺ : (**مؤمنون ورب الكعبة**) .

﴿ وَجَاءَت سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَايَ هَـذَا غُلاَمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ : **﴿ وَجَاءَت سَيَّارَةٌ ﴾** [٢] : رفقة يسيرون من مدين إلى مصر ، فنزلوا قريباً من الجُبّ ، وقد مضت عليه ثلاثُ ليالٍ من زمان إلقائه ، وكان ماءُ الجُبّ ملحاً ، فَعَذُبَ حين أُلقِيَ فيه يُوسُف ، **﴿ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ ﴾** . الذي يرد الماء ويستقي لهم ، وكان اسمه مالك بن ذعر الخزاعي ، هكذا ذكره كثيرٌ من المفسرين .

---

(١) الطبري : ١٦٦/١٢

(٢) القرطبي : ١٥٣/٩

وقال تعالى : **﴿ وجاءت سيَّارة فأرسلوا واردهم ﴾** فذكّر بعدما أنّث ، لأنَّ السيَّارَة في المعنى : الرجال . معاني القرآن للأخفش ٣٦٥/٢

والتأنيث على معنى الرفقة والجماعة ، والسيَّارة القافلة ، والقوم يسيرون .

لسان العرب : الجزء السادس

والدلو : مؤنثة سماعية .

وقد تطور اسم السيَّارة في عصرنا الحاضر ليصبح عَلَماً على الآلة والمركبة المعروفة ، وصيغُ المبالغة أصبحت أسماءً لكثيرٍ من الآلات كالثلاّجة ، والغسَّالة ، وهذا يُعَدُّ تطوراً لدلالات الألفاظ عبر العصور .

وقيل : مالك بن ذعراء الخزاعي . ﴿ **فَأَدْلَى دَلْوَهُ** ﴾ : أدلى بمعنى أرسل دلوه في البئر ، ودلاَّها إذا أخرجها ملأى ، فتدلَّى بها يُوسُفُ تعلَّق بها للخروج ، فلمَّا رآه قال ﴿ **يَا بُشْرَايَ** ﴾ بشارة لنفسه ﴿ **هَذَا غُلامٌ** ﴾ ، فلمَّا خرج يُوسُفُ إذا غلامٌ كالقمر ليلة البدر ، أحسن ما يكون من الغلمان ، قال ﷺ في حديث الإسراء : (**فإذا أنا بيُوسُفَ إذا هو قد أُعطِيَ شطر الحُسْن**) .
قال كعب الأحبار : كان يُوسُفُ حسن الوجه ، جعد الشعر ، ضخم العينين ، مستوي الخُلُق ، أبيض اللّون ، غليظ الساعدين والعضدين ، خميص البطن ، صغير السُرَّة ، إذا ابتسم رأيت النور من ضواحكه ، وإذا تكلَّم رأيت في كلامه شعاع الشَّمس من ثناياه ، لا يستطيع أحَد وصفه ، وكان حُسْنُه كضوء النهار ، وقيل : إنَّه ورث ذلك الجمال من جدّته (سارة) ، وكانت قد أُعطيت سُدُس الحُسْن [1] .

---

(1) والذي يظهر من سياق الأخبار والقصص والآيات ، أنَّ يُوسُفَ كان صغيراً ، ويدلّ على أنَّه كان صغيراً لا يدفع عن نفسه ، قول يعقوب : (**وأخافُ أن يأكله الذّئب**) وقولهم : (**أرسله معنا غداً يرتع ويلعب**) ، (**وإنَّا له لحافظون**) ، وأخذ السيارة له ، وقول الوارد : (**هذا غلام**) ، والغلام : الصغير الحدث . وقول العزيز : (**عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً**) . وما حُكِيَ من حمل إخوته له واحداً واحداً ، وكلامه لأخيه يهوذا : ارحم ضعفي وعجزي وحداثة سني ، وارحم قلب أبيك يعقوب ، ثُمَّ إمساكه بالحبل والدلو دون أن ينقطع به ، وكُلّ هذا يُرَجّح أنَّه كان صغيراً لم يتجاوز الثانية عشرة على أكثر رأي المفسرين ، ومَن كان ابن ثمان عشرة سنة على حد قول البعض ، لا يُخَافُ عليه من الذئب لا سيما إن كان في رفقة ، ولا يُقالُ فيه :(**وإنَّا له لحافظون**) لأنَّه إذ ذاك قادرٌ على التحيُّل في نجاة نفسه ، ولا يُسَمَّى غلاماً إلاَّ بقرينة . ولا يُقَالُ فيه : (**أو نتخذه ولداً**) ...

﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ﴾ [1] : أخفى مالك بن دُعْر أمره ، وأنَّه عثر عليه في البئر ، حتّى لا تطمع بقية الرفقة وأهل القافلة فيه ، وقال لأهل القافلة : دفعه إلينا أهل الماء لنبيعه لهم بمصر ، وبضاعة : نُصِبَ على الحال ، أخفوه متاعاً للتجارة والاستبضاع ، وبضاعة مشتقّة من البضع ، ما يُبْضَع من المال .

﴿ وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ : لم تخف عليه أسرارهم ، وهو المطَّلِع على أحوالهم ، إن كانت السيَّارةُ ، وإنْ كان إخوة يُوسُف في مكرهم واحتيالهم ..

﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾ : شَرى من الأضداد ، إذ يكون بمعنى اشترى وباع ، فإن عاد ضمير شروه على الإخوة كان شرى بمعنى باع ، وإن عاد على السيَّارة كان بمعنى اشترى ، وأيضاً لا يمنع في السيَّارة أن يكون على معنى باع ، ذلك أنَّ السيَّارة لَمّا التقطوه باعوه من بعضهم بثمنٍ قليلٍ ، والمشتري باعه مرّة أُخرى من العزيز .

وفي قصص الأنبياء أنَّ إخوة يوسف نظروا إلى القافلة واجتماعها على الجُبّ ، فأتوهم وكانوا يظُنُّونَ أنَّ يُوسُفَ عليه السلام مات ، فرأوه أُخْرِجَ حَيّاً ، فضربوه وشتموه وقالوا : هذا عبدٌ آبقٌ مِنّا ، فإن أردتم بعناه منكم ، ثُمَّ قالوا لِيُوسُفَ بالعبرانية : لا تُنْكِر العبودية فنقتلك ، فأقرَّ بها ، فاشتراه مالك بن دُعْر منهم بثمنٍ بخسٍ .

---

[1] (**وأسرُّوه بضاعَة**) : أخفوا يوسف حتّى لا تراه الرفقة فيطمعوا فيه ، وقيل : بل أخفوا أمره وكونه وُجِدَ في البئر ، وهذا لا يلائمه ولا يتناسب مع قوله : (**يا بشراي هذا غلام**) على أنَّه ناداهم ، إلاّ أن تكون البشارة لنفسه ، أو يكون المراد الإخفاء عن غير رفقته من أهل القافلة .

﴿ بِثَمَنٍ بَخْسٍ ﴾ : مبخوسٌ أي ثمنٌ قليلٌ حرامٌ ، لأنَّه عِوَضُ نفسٍ شريفةٍ لا تقابل بِعِوَضٍ وإنْ قَل . قيل : اثنتان وعشرون درهماً .

﴿ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ : مِمَّن يرغب عمَّا في يده فيبيعه بما طَفَّ من الثمن ، لأنَّهم التقطوه ، والمُلْتَقِطُ للشيء متهاونٌ به لا يبالي بما باعه ، ولأنَّه يخاف أنْ يعرض له مستحق فينزعه من يده ، فيبيعه مِن أوَّل مساومٍ بأوكسِ الأثمان .

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً ﴾ : اشتراه عزيز مصر واسمه قطفير ، واسم امرأته زليخا ، أو راعيل [1] . اشتراه وعمره سبعة عشر عاماً ، ولبِثَ في منزله ثلاث عشرة سنة ، وكان الملك يومئذٍ على مصر الريان بن الوليد العمليقي ، وقد آمن بيُوسُفَ ومات في حياته ، وقيل : بل فرعون موسى عاش أربعمائة سنة ، بدليل قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ ، والرَّاجح أنَّ المقصود بآية سورة (غافر) خطاب الأولاد بأحوال الآباء ، على معنى :

---

(١) امرأة العزيز : راعيل ، على وزن هابيل ، أو زليخا – بفتح الزاي وكسر اللام والخاء المعجمة – وقيل : بضم أوَّله – زُلَيْخَا على هيئة المصغر ، وقيل : أحدهما لقبها ، والآخر اسمها . والله أعلم .

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : أحسن الناس فراسة ثلاثة : العزيز حين تفرَّس في يوسف فقال : (**عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً**) ، وبنت شعيب حين قالت لأبيها في موسى : (**يا أبت استأجره إنَّ خير مَن استأجرت القويُّ الأمين**) ، وأبو بكر الصّدّيق رضي الله عنه حين استخلف عمر بن الخطّاب رضي الله عنه .

وإنّما كان هؤلاء أفرس ، لأنَّ ما تفرَّسوه وقع على أتم الوجوه ، والذي تفرَّسه العزيز من يوسف أنْ يكون له شأنٌ أو نفعٌ عظيم ، وكذلك ابنة شعيب عليه السلام ، والذي تفرَّسه أبو بكر في عمر في أيَّام خلافته من الصَّلاح والسَّداد وقد كان .

لقد جاء قومكم وأباءكم يُوسُفُ مِن قَبْل ، وما جاء آباءكم كأنّـه جـاءكم ، ويكون فرعون موسى من أحفاد فرعون يوسف عليه السلام .

قال لزوجته : ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾ : اجعلي مقامه عندنا حسناً كريماً ، والمثوى محلُّ الثُّواء والإقامة ، يقول عنترة العبسي :

طَالَ الثَّـوَاءُ عَلَى رُسُومِ الْمَـنْزِلِ ... ...

وأكرم مثواه كناية عن المبالغة في إكرامه ، وذلك أنَّ العزيز توسَّم فيه النَّفْعَ ﴿ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً ﴾ : وكان عقيماً لا يُولَد له .

﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ ﴾ [(١)] : كما مكّن له الحق تعالى في قلب العزيز حيث استقرَّت محبَّته كابنٍ له ، مكّن له في الأرض ، أرض مصر ، يتحكَّم فيها كما يشاء بأمره ونهيه ، وهذه إرهاصات بتحمُّله مسئولياتٍ أكبر بعد ذلك ، وهي خزائن الأرض ، ورُبَّ محنة في ضمنها منحة ، كما قال الشاعر :

وَإِذَا السَّعَادَةُ رَاقَبَتْكَ عُيُونُهَا نَمْ فَالْمَخَاوِفُ كُلُّهُنَّ أَمَانُ

---

(١) (وكذلك مَكَّنا لِيُوسُفَ في الأرضِ) ، وكذلك الإشارة إلى :

١ - إنجائه من الجُبّ .

٢ - وتمكين محبَّته في قلب العزيز .

٣ - وتمكينه في مَنْزِله .

مكّنا ليوسف في الأرض ولنعلّمه من تأويل الأحاديث : أي القصد من إنجائه وتمكينه ليقيم العدل ويدبر أُمور الناس ، ويعلم معاني كتب الله وأحكامه فينفذها ..

رُوِيَ أنَّه اشتراه العزيز وهو ابن سبع عشرة سنة ، ولبث في منزله ثلاث عشرة سنة ، واستوزره الريان وهو ابن ثلاثين ، وآتاه الله الحكمة والعلم وهو ابن ثلاثٍ وثلاثين سنة ، وتوفي وهو ابن مائة وعشرين سنة . والله أعلم .

البيضاوي : ٥/١٦٥

﴿ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾ : أي كان القصد من إنجائه وتمكينه في الأرض أنْ يُقيم العدل ، ويدبّر أمور الناس ، ويَعْلَمَ معاني كتب الله وأحكامه فينفّذها ، وتعبير المنامات المنبئة عن الحوادث الكائنة ليستعدّ لها ويشتغل بتدبيرها قبل أنْ تَحُلّ ، كرؤيا السنين السَّبْع العِجاف .

﴿ وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ : ﴿ وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ ﴾ : لا يرده شيء ، ولا ينازعه فيما يشاء ، حفظ يُوسُفَ مِمَّا كاد له إخوته ، فلم يَنْفُذْ فيه كيدهم ، ولا كيد امرأة العزيز ، فقد أراد إخوته شيئاً ، وأراد الله خلافه ، فلم يكن إلاّ ما أراده ، وهكذا فأنت تريدُ ، وأنا أريدُ ، ولا يكون إلاّ ما أُريدُ ، فإذا أردتَ ما أُريدُ كفيتك ما تريدُ ، وإذا لم تُرِد ما أُريدُ أتعبتُكَ فيما تُريدُ ولا يكونُ إلاّ ما أريدُ .

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ : إنَّ الأمر كلّه بيده ، ولطائف صنعه ، وخفايا لطفه ، وقد اقتضت حكمته أنْ يرتَفِعَ يُوسُفُ ويسود :

قُوَّةُ اللهِ إنْ تَوَلَّتْ ضَعِيفاً   تَعِبَت فِي مِرَاسِهِ الأَقْوِيَاءُ

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِين ﴾ :

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ : منتهى اشتداد جسمه وقوَّته ، وعن الأشُدّ أقوال ، أرجحها أنَّه من خمسٍ وثلاثين ، وتمامه الأربعون ، قال الكسائي : وواحده شَدٌّ ، كما قال عنترة العبسي :

عَهْدِي بِهِ شَدَّ النَّهَارِ كَأَنَّمَا   خُضِبَ اللَّبانُ وَرَأْسُهُ بِالْعَظْلَمِ

وشَدُّ النهار : أي أَشُدَّه أي أعلاه . اللّبانُ : الصدر . والعَظْلَمُ : عصارة نبت يُصْبَغُ به .

﴿ آتَيْنَاهُ حُكْماً ﴾ : حكمة ، وهو العلم المؤيّد بالعمل ، والحُكْمُ بين النّاس .

﴿ وَعِلْماً ﴾ : النبوة ، والفقه في الدين .

﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ : وفي هذا تنبيهٌ على أنَّ الجزاء من جنس العمل ، فيُوسُفُ كان تقيّاً ذاكراً لربّه في شبابه ووقت الصبوة ، والشباب شعبةٌ من الجُنُون ، وعجبتُ مِن شابٍ ليس له صبوة ، ومع ذلك تعفّف عن الفاحشة ، واستعاذ بمولاه ، يقول شوقي في هذا المعنى ، مُصَوِّراً الشباب ومسه :

اختلافُ اللّيْلِ والنّهارِ يُنْسِي اذْكُرَا لِي الصّبا وأيّامَ أُنْسِي

وَصِفَا لِي مِلاَوَةً مِنْ شَبَابٍ صُوِّرَتْ مِنْ تَصَوُّراتٍ وَمَسّ [١]

يريد أنْ يقول أمير الشُّعراء : بَعُدَ عهدي بأيّام الصّبا والشباب حتّى أُنْسِيْتُ صورته وشكله فاذْكُراه لي عسى أن أذْكرَه وأعيشَ على ذِكراه بَعْدَ ما كُنْتُ أحيا فيه ويحيا فيَّ ، وَصِفَا لِيْ تلك الفترة من العُمْرِ التي لا تكاد تُصَدَّق ، تلك الفترةُ التي كأنّما صُوِّرَتْ مِنَ الأوْهَامِ والجُنُونِ ، والتي عَصَفَتْ بي عَصْفاً ومَرَّتْ لاهيةً مضطربةً كأنّها البرقُ الخاطِفُ .

---

(١) الصّبَا : أيامُ الحَدَاثَةِ وَصِغَرِ السّن .
المِلاَوَة : مثلثة الميم ، البُرْهَةُ مِنَ الدّهْرِ ، ويلاحظ فيها جانب التّمَتُّع تَمَلّى عُمُرَهُ أي تمتّعَ بهِ .
صُوِّرَت : أُوجِدَت صُوَرُهَا وأشْكَالُهَا .
تَصَوُّرَات : تَخَيُّلات وأوْهَام .
المَسّ : الجُنُون .

مسائل نحوية :

﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ فيه عِدَّة تخريجات إعرابية :

الوجه الأول :

أن نجعلها جملة استئنافية لبيان الحال التي رآهم عليها ، فلا تكرير في الجملة ، وعلى هذا الوجه تكون رأى الأولى قد حُذِفَ مفعولها الثاني اقتصاراً على الأوَّل.

الوجه الثاني :

أنَّ جملة ﴿ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ مؤكدة لرأيت الأولى ﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً ﴾ وهذا التوكيد تطرية لطول العهد حيث أنَّه جاء بعد رأى الأولى بالمفعول ﴿ أَحَدَ عَشَرَ ﴾ والتمييز ﴿ كوكباً ﴾ فقد يطرأ على ذهن السامع شيء من النسيان لطول العهد فقال : ﴿ رَأَيْتُهُم لِي سَاجِدِينَ ﴾ فتكون مؤكدة للكلام السابق كما في قوله تعالى : ﴿ أَيَعِدكُم أَنَّكُم إِذَا مِتُّم وَكُنتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُم مُخْرَجُونَ ﴾ [١] . فإنَّكُم الثانية مؤكِّدة للأولى تطرية لطول العهد ، وبهذا الكلام يُسَلِّمُ مَن أنَ رأى (الحلمية ، كالعلمية) [٢] تتعدَّى لمفعولين ، ولا يحذف ثانيهما ، فهذا دليل له ، لأنَّه على تخريج ﴿ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ مؤكّدة فمعنى ذلك أنَّ ﴿ سَاجِدِينَ ﴾ مفعول ثان لرأيت الأولى ، ذلك أنَّ الفعل المؤكد لا معمول له ، إذ هو مجرَّد

---

(١) سورة المؤمنون ، الآية : ٣٥

(٢) قوله : الحلمية كالعلمية : أي الحلم كالعلم ، لأنَّ ما رآه يوسف كان حلماً لا علماً .

تكرير للفعل الأول ، كما تقـول : قـام قـام زيـدٌ ، فزيـد فـاعل لقـام الأولى ، والثانية تؤكيد له .

الوجـه الثالث :

أنَّ الجملة تأسـيس [١] وليسـت توكيـداً ، وكـأنَّ سـائلاً سـأل : كيـف رأيتهم قال : ﴿ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ ، ولكن قد يُعترض علـى هـذا الـرأي بأنَّ الفعل لم يستوف مفعوليه ﴿ رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً ﴾ .

والجواب : أنَّ المفعول الثاني حـذف اقتصـاراً [٢] علـى المفعـول الأوَّل ، كما قلنا في الوجه الأوَّل . وهذا ما مال إليه الزمخشري واختاره [٣] .

﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيـدُواْ لَـكَ كَيْـداً إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ .

قوله تعـالى : ﴿ قَـالَ يَـا بُنَـيَّ ﴾ تصغـير (ابـن) صغّـره إمّـا للشـفقة ، ويسميه النُّحاة تصغير (التحبيب) ، كما قال الشاعر :

قَد صُغِّرَ الجوهر في ثغـره لكنَّه تصغـــير تحبيب

---

[١] التأسيس : الابتداء والاستئناف .

[٢] قال في الفريد ٤٣/٣ : " ولكن حذفه اقتصاراً ممتنع فلم يبق إلاّ اختصــاراً ، وهـو قليـل أو ممتنع عند بعضهم " .

[٣] الكشاف ٣٢/٢

أو هو : تصغير (التمليح)[١] لأنَّـه كـان عنـد قصّـة هـذه الرؤيـا ابـن اثنتي عشرة سنة .

قوله تعالى : ﴿ **قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْداً** ﴾ فهم يعقوب عليه السلام من رؤياه أنَّ الله يصطفيه لرسالته ، ويفوقه على إخوته ، فخاف عليه حسدهم وبغيهم . (والرؤية ، كالرؤيا) في كونهما مصدر رأى ، إلاّ أنَّ (الرؤية) مصدر رأى (البصرية) الدالّة على إدراك مخصوص ، و (الرؤيا) مصدر رأى (الحلمية) الدالّة على ما يقع في النوم .

﴿ **لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ * إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ** ﴾ الجملة مفعول القول ، واللام لام الابتداء وتفيد التوكيد أو: الموطئة لقسم محذوف تقديره: والله ليوسف، (يوسف) مبتدأ، (وأخوه): الواو للعطف،

---

[١] ومن تصغير التمليح : قوله ﷺ لعمر بن أبي طلحة – رضي الله عنه – وهو أخ لأنس ابن مالك من أُمّهِ ؛ وأبوه أبو طلحة – وكان طفلاً صغيراً له طير أحمر المنقار ، يشبه العصفور يلعب به ، فمات ، فجاء النَّبيُّ ﷺ يوماً إلى دار أبي طلحة فقال : يا أُم سليم ما شأني أرى أبا عمير ابنك خائر النفس – أي غير نشيط – فأخبرته بموت النغير ، فجعل ﷺ يمسح رأسه ويقول : (**يا أبا عمير ما فعل النغير**) وفي رواية : (**أي أبا عمير مات النُّغَيْر**) . وهذا مِن تمام خلقه ومباسطته ﷺ للناس والطفل الصغير .

انظر : فتح الباري شرح صحيح البخاري ، لابن حجر العسقلاني : ١٠/٥٢٦ كتاب الأدب ، إشراف محمَّد فؤاد عبد الباقي ، ومحب الدين الخطيب .

وقد استخرج الإمام الشافعي رحمه الله من هذا الحديث خمسين مسألة فقهية .

و أخوه معطوف على يوسف ، وهو مضاف ، والضمير الهاء معطوف إليه ، ولمّا كانت الهاء معرّفة - لأنَّ الضمائر معارف - فإنَّ المضاف اكتسب التعريف ودلَّ على أنَّ (بنيامين) هو الأخ الشقيق ليوسف دون بقية إخوته .

واختصاص (بنيامين) بالإضافة في قوله تعالى : ﴿ **لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ** ﴾ لاختصاصه بالأُخوَّة من الطرفين (الأب والأُم) لأنَّه أخوه الشقيق دون سائر إخوته ، ولم يذكره إخوة يوسف في الآية باسمه ، بل قالوا : ﴿ **لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ** ﴾ إشعاراً بأنَّ محبَّة يعقوب عليه السلام (لبنيامين) إنَّما هي من أجل محبَّة يوسف لأنَّه شقيقه ، ليس إلاّ ، ولهذا لم يتعرَّض الأخوة (لبنيامين) بأذى ولا بشيءٍ مِمَّا أوقعوه بيوسف .

قوله تعالى : ﴿ **أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا** ﴾ بأسلوب التفضيل (أَحَبُّ) أنكر إخوة يوسف ميل يعقوب عليه السلام ، وإيثاره الشديد ليوسف وتعلُّقه به ، وكثرة الميل إليه ، وهذا أمرٌ مغروزٌ في الطِّباع ، حُبُّ الصَّغير والميل إليه ، ولذا عندما سُئِلَت الأعرابية عن أحبّ بنيها قالت : " الصَّغير حتّى يكبر ، والمريض حتّى يبرأ ، والغائب حتّى يعود " .

ومعلومٌ أنَّ لاسم التفضيل أربع حالات : منها (الإفراد ، والتذكير) وهذا عندما يكون (مجرّداً من أل والإضافة) ، ويذكر بعده المفضل عليه مجروراً ، ويجوز حذفه لقرينةٍ نحو : ﴿ **لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ** ﴾ .

﴿ اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضـاً ﴾ : في قولـه تعـالى : ﴿ أَرْضـاً ﴾ عِدَّة تخريجات إعرابية :

أولها : أنـَّه منصوب بنزع الخافض ، على حد المثال التالي :

[كما عَسَلَ الطَّريقَ الثَّعْلَبُ] [1] .

والعَسْل : نوعٌ من السير . والأصل : [كَمَا عَسَلَ فِي الطَّرِيقِ الثَّعْلَبُ] حذف حرف الجر ، لأنَّ العَسْلَ يقعُ في الطريق ، فهـي المعسـول فيهـا ، وهـذا الـذي جعلنـا نقـدر الخـافض (في) ، وأيضـاً فـإنَّ الفعـل الـلازم وما بعده لا يصح أن يكون مفعولاً به ، فتعدَّى إليه بحرف الجر ، وعلى هـذا يكـون الكـلام (اطرحـوه أرضـاً) أي [اطرحـوه في أرضٍ] ثُـمَّ حُذِفَ حرف الجر فانتصب الكلام على نزع الخافض .

ثانيها : أنَّ [أرضاً] منصـوبٌ على الظرفيـة المكانيـة ، وَرُدَّ هـذا الوجـه بـأنَّ الظرف المكاني لابُـدَّ أن يكون (مبهماً) ، والمبهم عند النحاة مـا ليـس له بدايـة أو نهايـة ، فمن ردَّه قال بأنَّ الأرض محـدودة وليسـت مبهمـة لأنَّ لها معالم وحدود .

ومَن أجازه اعتبر [أرضاً] مبهمة إذ المبهم ما لا حدود لـه ، ... وكلمـة [أرضـاً] تحمـل هـذا المعنـى ، فهـي أرض مجهولـة لا يهتـدي إليها ... ، وهي مبهمة وغير محدودة وخالية من كل وصف .

---

(1) والبيت لساعدة بن جُؤَيَّة يقول :

لَدْنٌ بِهَزِ الكَف يَعْسِلُ مَتْنُهُ فِيهِ كَمَا عَسَلَ الطَّرِيقَ الثَّعْلَبُ

أراد عَسَلَ في الطريق ، فحذف وأوصل ، كقولهـم : دَخَلْـتُ البيـتَ ، وعَسَـلَ الثعلـبُ يَعْسِلُ عَسَلاً : مضى مُسرِعاً واضطرب في عدوه وهزّ رأسه .

لسان العرب ، المجلّد الثالث عشر ، مادة (عَسَلَ) .

ثالثها : إعرابها مفعول بـه ، ومَن قـال بهـذا ضمَّـن (اطرحـوه) معنـى (أنزلوه) وأنزلوه يتعدَّى إلى مفعولين على حد قوله تعالى : ﴿ **رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبَارَكاً** ﴾ . وعليه فإنَّ اطرحوه بعد أن ضمنت معنى أنزلوه نصبت مفعولين : الأول الضمير (الهاء) في اطرحوه ، و الثاني (أرضاً) .

﴿ **يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ** ﴾ : قوله تعالى : ﴿ وتكونوا ﴾ : حُذِفَت نونه لأنَّه من الأفعال الخمسة ، وهو إمَّا أن يكون مجزوماً أو منصوباً ، فقد يكون مجزوماً بالعطف على (يخل) ، ويخل مجزومة في جواب الطلب (اطرحوه أرضاً يخل) وأصل (يخل) (يخلو) مجزوم بحذف حرف العلّة ، فلمَّا عطّف عليه الفعل (تكونوا) حُذِفت نونه لأنَّ المعطوف على المجزوم مجزوم .

وهناك وجه ثانٍ في حذف النون من الفعل (تكونوا) وهو أنْ يكون منصوباً بأن مضمرة ، وعلامة نصبه حذف النون هكذا ﴿ **وَتَكُونُواْ مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ** ﴾ ، وعلى هذا فلا إشكال .

﴿ **قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَخَاسِرُونَ** ﴾ : قوله تعالى : ﴿ **لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ** ﴾ هذه اللاَّم هي الموطئة للقسم المقدر تدخل على (إنْ) الشرطية ، وتقوم مقام القسم ، والتقدير (وا لله لئن أكله الذئب ونحن عصبة) والجواب : ﴿ **إِنَّا إِذاً لَخَاسِرُونَ** ﴾ ، والتوطئة بمثابة التمهيد والتهيئة للشيء ولفت الأنظار إليه ، فاللام كأنَّها هيَّأت ذهن المخاطب للقسم وجوابه ، فمن يسمعها يعلم بأنَّ هناك قَسَم وجوابه . وحيث أنَّ القاعدة تقول : إذا اجتمع القَسَم والشَّرْط يكون الجواب للمتقدِّم ويحذف

جواب المتأخر ، وحيث تقدّم القَسَم هنا فالجواب يكون له (وا لله إنّا إذاً لخاسرون) ، يقول ابن مالك :

وَاحْذِفْ لَدَى اجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَمْ   جَـوَابَ مَا أخَّرْتَ فَهْوَ مُلْتَزَمْ

﴿ **فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ وَأَجْمَعُواْ أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنهم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ** ﴾ : قوله تعالى ﴿ **فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ** ﴾ : هذه (لَمَّا) الحينية ، وهي ظرف زمان ، وتختص بالماضي ، ويكون جوابها فعلاً ماضياً ، وجواب (لَمَّا) في الآية محذوف والتقدير ﴿ **فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ وَأَجْمَعُواْ أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ** ﴾ (جعلوه فيها) هذا على مذهب البصريين . والكوفيون على أنَّ جوابها (أوحينا) والواو في (وأوحينا) ليست واو عطف ، وإنّما واو مقحمة ، إذ الواو تزاد عندهم مع (لَمَّا) (وحتّى) ، كما في قوله تعالى : ﴿ **فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيم** ﴾ [الصَّافَّات : ١٠٣-١٠٤] ، وقوله تعالى : ﴿ **حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا** ﴾ [الزُّمر : ٧٣] .

قوله تعالى : ﴿ **لَتُنَبِّئَنَّهُم** ﴾ جواب قسم مقدَّر ، والتقدير (وعزّتي وجلالي لتنبئنّهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون) .

﴿ **وَجَاءُواْ عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَا للهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ** ﴾ : قوله تعالى : ﴿ **وَجَاءُواْ عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ** ﴾ قال الزمخشري : ﴿ **عَلَى قَمِيصِهِ** ﴾ محلّه النصب على الظرفية ، والتقدير : ﴿ **وَجَاءُواْ عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ** ﴾ [أي فوق قميصه] ، وبعضهم يرى أنّه حال (من الدّم) على القول بجواز تقدُّم الحال على صاحبها ، إذ الأصل في الحال أن لا تتقدَّم على صاحبها ، ما لم يكن

مجروراً كما في الآية الكريمة، والتقدير: (وَجاؤوا بدم كذب حال كونه كائناً فوق قميصه) وتقديم الحال على المجرور بالحرف[1] غير الزائد جائز، وقد جاء في التنزيل ما يماثله، قال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاك إلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾ [سبأ: ٢٨]، و[كافة] حال، وقد تقدَّمت على الجار والمجرور في الآية الكريمة والتقدير (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلاَّ لِلنَّاسِ كَافَّةً).

وأمَّا قوله تعالى : ﴿ **بِدَمٍ كَذِبٍ** ﴾ فإنَّ كلمة (كذب) مصدر ، والمصدر لا ينعت به ، لأنَّ النعت إنَّما يكون في المشتقات ، وعلى هذا يكون التقدير (وجاءوا على قميصه بدمٍ ذي كذب) [أي مكذوبٌ فيه] ، وهذا رأي جمهور أهل البصرة . أمَّا الكوفيون : فيؤولون المصدر بالصفة ﴿ **بِدَمٍ كَذِبٍ** ﴾ : أي : [دم كاذِب] .

قوله تعالى : ﴿ **قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَا للهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ** ﴾ : (بل) الابتدائية وتليها جملة ، وتفيد الإضراب ، والإبطال : أي إلغاء الحكم الذي قبلها ، وتقرير الحكم الذي بعدها ، فهنا (بل) أبطلت قول إخوة يُوسُف ﴿ **فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ** ﴾ وقررت تزيين أنفسهم لهم هذا الباطل الفظيع . قوله تعالى : ﴿ **فَصَبْرٌ جَمِيلٌ** ﴾ : صبرٌ خبر لمبتدأ محذوف أي (فصبري صبرٌ جميلٌ) أو نعربه مبتدأ لخبر محذوف والتقدير (فصبرٌ جميلٌ صبري) وسوّغ الابتداء بالنكرة كونها موصوفة ...

---

(١) ويمنع الزمخشري أن يكون (**على قميصه**) حال ، لأنَّ حال المجرور لا يتقدَّم عليه عنده . وأجاز ابن مالك تقدُّم الحال على صاحبها مطلقاً .

النحو الوافي ، لعباس حسن : ٣٧٩/٢ ، دار المعارف بمصر .

مسائل بلاغيـــة :

﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَـرَ رَأَيْتُهُـمْ لِـي سَاجِدِينَ ﴾ شبّهت النجوم والشمس والقمر بقومٍ مُصَلّين ، وحُذِفَ المُشَبَّه بـه ورمز له بشيءٍ من لوازمـه وهـو " السـجود " ، ثُـمَّ أُضيـفَ لازم المشبَّه بـه للمشبَّه على سبيل الاستعارة التخييلية ، والقرينة الدالَّة على الاستخدام المجـازي في الاستعارة المكنية قرينة (السجود) وهي قرينـة تخييليـة ، إذ كيـف يُتَصَـوَّر السجود من الكواكب والشمس والقمر إلاّ على باب التخييل .

ثُمَّ القرينة الأخرى وهي جمعهم جمع العقلاء بالضمير (هُم) ﴿ رَأَيْتُهُـمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ قرينة أخرى ، والضمير (هُم) ترشيح ، والترشيح ذكـر لازم من لوازم المشبَّه بـه .

وهُناك وجـهٌ آخـر بجعلهـا استعارة تصريحيـة : ويكـون الكـلام : شـبَّه الخضوع والخنوع بالسجود ، بجامع الانكسار في كُلٍ ، ثُمَّ اشتق من السـجود ساجد بمعنى خاضع على سبيل الاستعارة التصريحية ، لأنـَّه صرَّح بلفظ المشـبَّه بـه (السجود) وتبعية لأنَّها جرت في المشتقات .

﴿ اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِـنْ بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ ﴾ : في قوله تعالى : ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْـهُ أَبِيكُـمْ ﴾ كنايـة عن خلوص محبته لهم ، ويكون المراد بخلو وجه أبيهم إقباله عليهم واصطفاؤهم بالمحبة ، ولا يتأتّى هذا إلاَّ بإقباله بوجهه عليهم ، وإقبال يعقـوب عليـه السـلام بوجهه على أبنائـه إخـوة يُوسُـف لازم لخلـوص المحبَّـة لهـم ، واشـتغاله بهـم ، والهشاشة لهم ، فيتوصل عن طريق اللازم وهو الإقبال بالوجه عليهم إلى الملزوم وهو خلوص المحبَّة ، والوصول من خلـوص الوجـه إلى نيـل الرعايـة والاهتمـام

الخاص بكم دون يُوسُفَ ، ففيه انتقالٌ من اللازم إلى الملزوم بمرتبتين ، وتكـون الكناية تلويحية : وهي التي يصل إليها بمرتبتين اللازم والملزوم ، ويكـون الوجـه هنا بمعناه المعروف وهو مقيد بهذه الكنايـة التي يتوصل بها عـن طريـق الـلازم وهو الإقبال بالوجه إلى الملزوم وهو خلوص المحبّة .

وهنـاك وجـهٌ آخـر وهـو تفسـير الوجـه بمعنـى الـذّات (وجـه أبيكـم : أي ذات أبيكم) ، أطلق الجزء وأراد الكُلّ ، وتكون الكنايــة هكـذا ﴿ **يَخْـلُ لَكُـمْ وَجْـهُ أَبِيكُـمْ** ﴾ : كنايـة عـن التوجــه والتقيـد بنظـم أحوالهـم وتدبــير أمورهـم ، وذلـك لأنَّ خُلُـوّه لهـم يـدلّ علـى فراغــه عـن الاشـتغال بيُوسُــفَ عليه السلام ، فيشتغل بهم وينظّم أمورهــم ويجعلهـم محـل عنايتـه واهتمامــه ، فيقبـل بكليتـه عليكـم ، ولا يلتفـت عنكـم إلى غـيركم ولا ينـازعكم في محبّتـه أحد ، ولا يشغله شاغل عنكم ، فالوجــه هنـا بمعنـى الـذات ، فهـذا الاهتمـام والإقبال عليكــم كـائن بشـخصه ، وهـذه كنايــة إيمائيـة : وهـي القريبـة الـتي لا تكثر فيها الوسائط .

﴿ **قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَـاصِحُونَ** ﴾ : في قوله تعالى : ﴿ **وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ** ﴾ : كنايـة عــن الشـفقة والحنـان وزيـادة ، فنحن لا نحافظ عليه فحســب ، بـل سـيكون محـل رعايتنـا وعطفنـا وحدبنـا ، فالنصح مرحلة فوق الإشفاق والحُبّ ، بل فيها معنى الحنـو والعطـف والرحمـة وزيادة ، ناصح وشفيق ﴿ **وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ** ﴾ .

ما يُسْتَفَادُ من الآيات :

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَت هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّه لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ :

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا ﴾ [(١)] : طلبت منه أن يجامعها ، وتمحَّلت الحيلة في ذلك برفقٍ ولين . وقال القرآن : التي هو في بيتها و لم يصرّح باسمها ، و لم يقل امرأة العزيز ، ستراً على الحُرَم .

وأيضاً هناك لطيفة تُسْتَفَاد : فإنَّ قوله (في بيتها) أنسب في الدلالة على المقصود ، فيُوسُف يعيش في بيتها كابنٍ لها . فلا تتطرَّق له الشكوك في مراودتها ، وذلك الذي دفعها أن تُقْدِمَ على طلبها في جراءة وثقة .. وكُلُّ ذلك أدعى للموافقة ، فالعفة مع هذه الأحوال ، أرقى ما وصل إليه الأخيار ..

﴿ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ ﴾ [(٢)] : يُقَال أنها كانت سبعة أبواب ، فلمَّا نظرت إلى يُوسُفَ وما هو عليه من الخلق السوي ، والجمال الأخَّاذ ، أضرمت

---

(١) والمراودة : من رَادَ يَرُودُ إذا جاء وذهب في طلبٍ ، وهو يدل على الجدّ في الطلب . ومن رَادَ : الرائد وهو الذي يرسل لطلب الماء والكلأ . والحديث : (**فإنَّ الرائد لا يكذب أهله**) .

(٢) (وغلّقت الأبواب) : كانت سبعة ، والتشديد في (غلّقت) :

١ - إمَّا للتكثير في المفعول (الأبوابَ) هذا على القول بأنَّها سبعة .

٢ - أو للتكثير في الفعل (غلّق) فكأنَّها غلّقت الباب مرّة بعد مرّة ، وجمع الباب حينئذٍ إمَّا لجعل كُلّ جزء منه كأنَّه باب ، أو لجعل تعدد أغلاقه بمنزلة تعدُّده .

٣ - أو للتوثيق ، فكأنَّها (غلّقت الأبوابَ) بمغلاقٍ بعد مغلاق ، فهي سبع قفلات لسبعة أبواب .

=

في صدرها جذوة الحُبّ ، وصارت كُلَّما كرَّرت النظر إليه ازدادت لواعج الغرام ، إلى أن غلبها الحب على حيائها ، فصارحته ودعته إلى نفسها ، واحتاطت للأمر ، وكأنَّها قد علمت من طول صحبتها له أنَّه لن يستجيب لهذا المنكر الفظيع ، فعمدت إلى الأبواب وغلَّقتها وقالت : ﴿ **هَيْتَ لَكَ** ﴾ : لقد تهيأتُ لك ، فهلُمَّ وأقبِلْ ، فالمكان خالٍ ، وليس هناك مَن يُنَغِّص خلوتنا ، ولن تتسرَّب لنا الشكوك في شيءٍ فاقض حاجتك .

﴿ **قَالَ مَعَاذَ ا للهِ** ﴾ : استجرت با لله مِمَّا تدعونني إليه ، ﴿ **إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ** ﴾ [1] : إذ نجَّاني من الجُبّ ، وأقامني في أحسن مقام ، فكيف أجزي الإحسان بالاساءة .

﴿ **إِنَّه لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ** ﴾ : الخائنون الذين يجازون الحسنة بالسيئة ، أو الزناة ، لأنَّ الزنا ظلم على الزاني والمزني بأهله .

والعزيز قد أكرمني وأنزلني في خير منزل ، وجعلني مؤتمناً على ماله وأهله ، فكيف أُجازي هذا الإحسان بالإساءة ، وأخونه في عِرضه ، وأقصد السوء بأهله ، ﴿ **إِنَّه لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ** ﴾ المجازون الإحسان بالإساءة .

﴿ **وَلَقَدْ هَمَّت بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلاَ أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ** ﴾ [يوسف : ٢٤] : والمراد

---

٤ – أو للتكثير مع التوثيق فكأنها (غلّقت الباب) بمغلاقٍ واحدٍ عِدَّة قفلات ، رصة بعد رصة ، فهي سبع رصات لبابٍ واحدٍ بمغلاقٍ واحدٍ .

(١) وفسَّر بعضهم (إنَّه رَبِّي) : بالعزيز ، ويبعد جداً أنْ يُطلِقَ نبيٌّ كريمٌ على مخلوقٍ أنَّه رَبُّهُ ، ولا بمعنى السيد ، لأنَّه لم يكن في الحقيقة مملوكاً له .

والأرجح : (إنَّه ربِّي) أي خالقي الذي أكرمني بالنجاة من السجن ، وأنزلني في أحسن مقام ..

بِهَمّ يوسف عليه السلام ميل الطبع ومنازعة الشهوة ، لا القصد الاختياري وذلك مِمَّا لا يدخل تحت التكليف ، بل الحقيق بالمدح والأجر الجزيل مِنَ الله مَن يَكُفّ نفسه عن الفعل عند قيام هذا الهَمّ أو مشارفَة الهَمّ كقوله : (قتلته لَوْ لم أخَف الله) أي شارفتُ على قتلهِ ولكنْ حجزني خوف الله فَلَم أقدم وكذلك يُوسُف الصّدّيق اشتَهَاهَا ولكِن تَذَكَّر خوف اللهِ فدفَع ذلك حَتّى مِن نفسهِ ، وقَد مالَ إلى هذا الشّهاب فقال : ﴿ **وَلَقَدْ هَمَّت بِهِ وَهَمَّ بِهَا** ﴾ : أي اشتهته واشتهاها ، وأنّه أحْسَنُ الوجوهِ .

وهُناك كثيرٌ من الأقوالِ الباردة ذكرها المفسّرون : مِن أنّه جَلَسَ مجلس الرَّجُل مِن امرأته ، وقيل : تمثّل له يعقوب عَاضّاً على أنامِله ، وقيل : قِطْفير العَزيز ، وقيل : نُودِي يا يُوسُفُ أنتَ مكتوبٌ في دِيوانِ الأنبياء وتَعْمَل عَمَل السُّفَهَاء .

وغابَ عَن هؤلاء و لم يفقهوا قوله تعالى : ﴿ **كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ** ﴾ [1] : فكيف يكون قد صرفَ

---

(١) للإمام الرازي كلمة لطيفة أوردها في تفسيره (٥/١٦٩) قال :

أنَّ يُوسُفَ عليه السلام قد شهد المولى ببراءته قال تعالى ﴿ **إنّه مِن عبادنا المخلصين** ﴾ وشهد الشيطان ببراءته ﴿ **فبعزّتك لأغوينّهم أجمعين إلاّ عبادك منهم المخلَصِين** ﴾ وشهد الشاهد ببراءته ﴿ **إن كان قميصه قُدَّ مِن قُبُلٍ فصدقَت وهو من الكاذبين * وإن كان قميصُه قُدَّ مِن دُبُرٍ فكذبت وهو من الصادقين * فلمَّا رأى قميصه قُدَّ من دُبُرٍ قال إنّه مِن كَيدِكُنَّ إنَّ كَيدَكُنَّ عظيمٌ** ﴾ وشهد النسوة ببراءته ﴿ **ما علمنا عليه من سوء** ﴾ وشهدت امرأة العزيز ببراءته قالت :﴿ **الآن حَصْحَصَ الحق أنا راودته عن نفسه وإنّه لمن الصادقين** ﴾ فالذي يريد أن يتّهم يوسُف بالهَمّ عليه أن يختار أن يكون من حزب الله أو من حزبَ الشيطان ، وكُلُّهم شهد ببراءته ... =

عنه السُّوء ، وهو قد تهيّأ لفعل الفاحشة ؟ وكيف يُوصَف بأنّه مِن المُخْلَصِين مَن كان انصرافه على هذا الوجه .

على أنَّ الذي يجب اعتقاده في هذا الشأن أنّه لا يمكن الهَمُّ فضلاً عن الوقوع فيه ، وأنَّ البُرْهَان ما عِنْدَه مِن العلم الدّالّ على تحريمِ ما همَّت به ، فضلاً عن مباشرته ، وفيما تقدَّم ما يغني عن الإطناب في هذا الموضوع ، ويكون لعلمه بتحريم الزنا وبرهان ربه قد هَمَّ بها دفعاً ، فيما هَمَّت بهِ جَلْباً وحُبّاً (١) .

﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ : كذلك أي مثل ذلك التثبيت ثبتناه ، وكما حفظه الحق في الجُبّ ، وجعله كريم المثوى في بيت العزيز ، كذلك صَرَفَ عنه السُّوء : خيانة العزيز ، والذي جعله ابناً له ، والفحشاء : الزنا ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ : الذين أخلصوا دينهم لله وأخلصهم الله لطاعته .

= وفي الشهاب (١٦٩/٥) : وشهد يوسُف ببراءته بقوله : ﴿ هي راودتني عن نفسي ﴾ وشهد سيدها العزيز ببراءته بقوله : ﴿ إنَّكِ كُنْتِ من الخاطِئين ﴾ ومع هذه الشهادة جميعها ببراءته إلاّ أنَّ القُصَّاصَ لم يبرّئوا ساحته ، فصدق فيهم قول الشاعر :

وكنت فتى من جُندِ إبليس فارتقى بي الحال حتّى صار إبليسُ مِن جُنْدِي

(١) حكى أبو حاتم عن أبي عبيدة " أنَّ يُوسُفَ عليه السلام لم يهتم ، وأنَّ الكلام فيه تقديمٌ وتأخيرٌ ، أي : ولقد همَّت به ، ولولا أن رأى برهان ربه لَهَمَّ بها " ، وهذا المعنى هو الموافق لمساق الآية . ألا ترى أنّه ﴿ قال معاذ الله إنّه ربي أحسن مثواي ﴾ وهذا نفسه هو البرهان من ربه ، وأي برهان أعظم من هذه الفضيلة ، وهي أنَّ الإنسان يجب أن يحفظ نعمة المربي والسيد سواء أكان خالقاً أم مخلوقاً .

﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّت قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَت مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلاَّ أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ :

﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ ﴾ : أي قصد كُلٌّ سبق الآخر إلى الباب ، فيُوسُف عليه السلام ليخرج وهي لتمنعه ، فيُوسُف فرَّ منها ليخرج ، وأسرعت وراءه لتمنعه الخروج منه .

فإن قلت : كيف وَحَّدَ البابَ هنا ، فقال : ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ ﴾ مع جمعه هناك ﴿ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ ﴾ ؟

والجواب : (هو الباب البراني) . فإن قُلْت : كيف يستبقان إلى البرّاني ودونه أبواب جوّانيّة ؟

والجواب : أنَّ أقفال الأبواب كانت تتناثر إذا قرب يوسف منها وتنفتح . ويحتمل أن تكوُن الأبواب المغلقة ليست على الترتيب باباً فباباً ، بل تكون في جهات مختلفة كلها منافذ للمكان الذي كانا فيه ، فاستبقا إلى باب ليخرج منه ولا يكون السابق على الترتيب ، بل أحدها .

﴿ وَقَدَّت قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ ﴾ : اجتذبته من ورائه ، فانقدَّ قميصه وانخرق إلى أسفله ، والقدّ : الشق طولاً ، والقط : الشق عرضاً .

﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ ﴾ : وجدا سيدها وهو العزيز ، وكانوا يسمون الزوج بالسيد لملكه التصرُّف فيها ، ولذا لم يقل سيدهما ، لأنَّه لم يكن مالكاً له حقيقة ، فيوسف عليه السلام حُرٌّ .

وفي الكلام حذف تقديره : ألفياه مقبلاً ، فرابه أمرهما وقال : ما لكما ؟ فلمَّا سأل وقد خافت لومه ، بادرت أن جاءت بحيلةٍ جمعت فيها بين تبرئة ساحتها من الريبة ، وغضبها على يُوسُفَ ، وتخويفه طمعاً في

مواقعتها مرّةً أُخرى خيفةً من مكرها ، وذلك لّما آيست أن يواقعها طوعاً ، ألا ترى إلى قولها : ﴿ **وَلَئِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ** ﴾ .

﴿ **قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً** [(١)] **إِلاَّ أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ : وعجيبٌ أن يكون الخَصْم هو الحَكَم في نفس الوقت ، ولكن من فَرْط حُبّها لِيُوسُفَ لم تملك إلاّ أن قالت : إلاّ أن يُسجن ، إبقاءً على محبوبها ، أو عذابٌ أليم ، فهي تتنصّل من تهمتها وتلصقها بغيرها ، وهي تُقَرّرُ العقاب الذي يستحقه ، والعقاب معقول لا يصل إلى حَدّ الإعدام .

﴿ **قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَّفْسِي** ﴾ : قاله يُوسُفُ ليدفع عن نفسه التهمة ، ويزيل الحرج ، ولا سيما وهو في موقفٍ لا يُحْسَد عليه مع ولي نعمته ، والرجل الذي أقامه مقام ابنه ، حينئذٍ قال : ﴿ **هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَّفْسِي** ﴾ ، فهو لم يُرِد فضيحتها ، ولم يقل : (هذه) مشافهاً لها بما تكره ، وإنّما أتى بضمير الغيبة فقال : (هي) ، إذ كان غلب عليه الحياء أن يشير إليها ويعيّنها بالإشارة [فيقول : هذه راودتني] ، [أو تلك راودتني] ، لأنَّ في المواجهة بالقبيح ما ليس في الغيبة ..

ولّما كان العزيزُ رجلاً تغلب عليه الأناءة والنَّصَفة ، فقد طلب التثبت في القضية ، وعدم البت فيها دون استيفاء الحُجَج والبراهين ، حتى

---

(١) قوله تعالى : ﴿ **مَن أراد بأهلِكَ سوءاً** ﴾ هذا من كنايات القرآن التي تجمل ، وفيها من الحياء والحشمة ما فيها ، (فالسوء) هنا المقصود به الفاحشة ، ومثله قول يُوسُف (أصبُ إليهنَّ) أي أمل إلى مؤاتاتهن والوقوع في المحظور ، وكُلُّ هذه من كنى القرآن الشريفة التي يسودها الحياء والمثل العليا والأخلاق الكريمة ..

أنطق الله الشاهد [١] ، قيل كان ابن عمّ لها في المهد ، فقال : ﴿ إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ * وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ، وحيث أنَّ الأدلَّة والشواهد سوف تدين امرأة العزيز ، وتبرّئ ساحة يوسف ، فإنَّ الشاهد لم ينطِق مصارحةً ببراءة يُوسُف ، بل ترك القرائن ودلائل الأحوال هي التي تنطق بذلك ، وفي ذلك أكبر إدانة لها ، وكون الشاهد من أهلها يكون أوثق في الحُجَّة ، وأقوى في البيِّنة ، حيث انتفت تهمة المجاملة ليُوسُفَ ، وكونه طفل صغير يتكلَّم في المَهْد ما يشهد بأنَّ الأمر كُلَّه مِن عند اللهِ ، وأنَّ براءَة يُوسُفَ عليه السَّلام جاءت مِنْ عَند الغيور ، والتي غضب لها حتَّى الطِّفل الصَّغير ، فالأمر جَلَل .

﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ * وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ * يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ :

﴿ إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ ﴾ : لأنَّه يدل على أنَّها قَدَّت قميصه من قُدَّامه بالدَّفع عن نفسها ، أو أنَّه أسرع نحوها فتعثَّر بذيله فانقَدَّ جيبه ، وعلى هذا فدلالة (قَدّ القُبُل) على صدقها من وجهين :

١) أنَّه تبعها وهي دافعته عن نفسها ، فقدَّت قميصه مِن قُدَّامه بالدَّفْع .

٢) أنَّه أسرع خلفها ليلحقها فتعثَّر في مقادم قميصه فشقَّه .

---

[١] تكلَّم في المهد أربعة : ابن ماشطة فرعون ، وشاهد يُوسُف ، وصاحب جريج ، وعيسى ابن مريم عليه السلام .

﴿ **وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ** ﴾ : لأنـّه يدُلّ علي أنّها تبعته فاجتذبت ثوبه فقدّته .

﴿ **فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّه مِن كَيدِكُنَّ** ﴾ : ما عَملْتِهِ في يُوسُفَ وطَمَعُكِ فيه ، وقوْلُكِ : مَا جزاءُ مَن أرادَ بأهْلِك سوءاً ، ذلك مِن حيلتِكُنَّ ، والخطاب لها ولسائر النساء على شاكلتها .

﴿ **إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ** ﴾ : فإنَّ كيد النساء ألطف وأعلق بالقلب ، وأشدّ تأثيراً في النّفس ، وكيد الشيطان ضعيفٌ بالنّسبة لكَيْدِهِنَّ ، لأنّهُنَّ يواجِهْنَ به ، والشّيْطانُ كيده : وسوسَته ومسارَقته ﴿ **إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً** ﴾ : عظيم ، لعظم فتنتهِنَّ واحتيالهِنَّ في التّخلُّص مِن ورطتِهِنَّ ..

﴿ **يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ** ﴾ : يا يُوسُف أعرِض عن هذا الذي حَدَث ولا تذكره لأحَدٍ واكتمه ، وأنتِ يا زليخا استغفري زوجك لذَنْبكِ ﴿ **إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ** ﴾ القوم المذنبين .

وهذا يدُلّ على أنَّ شخصية العزيز كانت شخصية تميل إلى التّسَتُّر والتّحَفُّظ ، وعدم إظهار الفضائح الجنسية ، فإنّه أمرٌ لا يقبله إنسانٌ ، حتّى ولو عاش في مجتمعٍ جاهليّ .

﴿ **وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ** ﴾ : وقال نسوةٌ في المدينة ، وكُنَّ خمساً : زوجة الحَاجِب ، والسَّاقي ، والخبّاز ، والسجّان ، وصاحب

الدواب ، في المدينة ، هي مصر [١] ، أي أنَّهم أشاعوا مثل هذا الخبر في المدينة من حُبّ امرأة العزيز لِيُوسُفَ ، وصرَّحوا بإضافتها إلى العزيز ، مبالغةً في التشنيع ، لأنَّ النُّفوس أقبل لسماع ذوي الأخطار وما يجري لهم ، وقالوا : (تُرَاوِدُ) بالفعل المضارع الذي يدل على الثبات والاستمرار ، كأنَّ ذلك صار سجيَّة لها تخادعه دائماً عن نفسها . والعلَّة في ذلك كونه قد شغفها حُبّاً ، وصل حبُّه إلى شغاف قلبها ، وهو حجابه ، فشقَّه حتى بلغ سويداءه ، والشّغَافُ جِلدةٌ رقيقةٌ يُقالُ لها لسان القلب ، وقُرِئَ " **شَعَفَها حُبّاً** " مِن شعفَ البعيرَ إذا هنأَهُ بالقطران فأحرقه ، وكأنَّ حُبَّه قد كوى قلبها وأحرقه .

﴿ **إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ** ﴾ : في تَحَيُّرٍ واضحٍ للناس ، وبُعْدٍ عن طريق الرَّشاد والصَّواب .

﴿ **فَلَمَّا سَمِعَت بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَت إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَئاً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ للهِ مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ** ﴾ : ﴿ **فَلَمَّا سَمِعَت بِمَكْرِهِنَّ** ﴾ : وإنَّما سمَّاه مكراً لأنَّهُنَّ أخفينه كما يُخْفِي الماكرُ مكرَه ، أو أنَّ تلك المقالة الصَّادرة عن النّسوة إنَّما قصدن بها المكر بامرأة العزيز لِيُغْضِبْنَها استفزازاً حتَّى تعرض عليهِنَّ يُوسُفَ ليتمحَّلن

---

[١] المدينة : مصر . وكُنَّ النسوة من أشراف مصر في مدينة [عين شمس] التي كانت عامرة إذ ذاك .

والفتى : الشاب حديث السن ، وهو يائي ، بدليل تثنيته تقول : فَتَيَان . لأنَّ الأشياء تُرَدُّ إلى أصولها . وعلى هذا فالفتوة شاذّة .

الجواهر ، لطنطاوي الجوهري ٣٧/٧ ، الطبعة الثانية .

لها عُذْراً ولا يلمنها على هذا الحُبّ . وقيل : بـل استكتمتهُنَّ سِرَّها في حُـبّ يُوسُفَ فأفشينه عليها .

﴿ أَرْسَلَت إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَئاً ﴾ : [١] هيَّـأت لَهُـنَّ مـا يتكِئـنَ عليه من النمارق والمخادّ . ومِن المعلوم أنَّ هذا النوع من الإكرام لا يخلـو مـن طَعَامٍ وشَرَاب ، ويكون في جملة الطَّعام ما يُقْطَع بالسكاكين ، ﴿ وَآتَـتْ كُـلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً ﴾ حتّى يتّكِئْنَ والسكاكين بأيديهنَّ ، فإذا خـرَجَ عليهـنَّ يُوسُفُ يبهتن ويُشْغَلْن عن نفوسهِنَّ فتقـع سـكاكينهنَّ علـى أَيْدِيَهُـنَّ فيقطعنهـا فيبكتن بالحُجَّة ، وأنّـه سَلَبَ عقولَهُـنَّ ، أو التهويـل علـى يُوسُـفَ بمكرهـا إذا خَرَجَ على نساءٍ مجتمعـاتٍ في أيديهـنَّ الخنـاجر ، تُوْهِمَـهُ أنـَّهُنَّ يثبن عليـه ، فيخاف يُوسُفُ من مكرها فيسـتجيب لهـا ، ﴿ وَقَـالَتِ اخْـرُجْ عَلَيْهِـنَّ فَلَمَّـا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ ﴾ أعظمنه وهِبْنَ حُسْنَه ودُهِشْنَ من ذلك الجمال الفائق والحُسْـن الرَّائق . وفي حديث الإسراء أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لَمَّا أخبر بلُقْيا يُوسُفَ ، قيل : يا رسول الله ! كيف رأيتـه ؟ قال : (**كالقمر ليلة البدر**) .

وفُسّـرَ (أكبرنــه) بمعنى حِضْـنَ ، يُقـال : أكـبرت المـرأة إذا حـاضت ، وحقيقته من الكِبَرِ ، لأنّهـا بـالحيْض تَخْرُج عـن حَـدّ الصّغَـر إلى حَـدّ الكِبَر ، وكأنَّ أبا الطَّيّب أخذ من هذا التفسير قوله :

---

[١] (متّكَأً) : اسم مكان ، أو آلـة بمعنى الوسادة . قال جميل :

رسـم دار وقفــت في طلله ... كدت أقضي الحياة من جلله

موحشاً ما تــرى به أحداً ... تنسج التُّرْب ريـح معتدله

فظللـنا بنعمــــةٍ واتَّكـأنا ... وشربنا الحـــلال من قُلَلِه

قال ابن قتيبة : معنى (اتّكأنا) أكلنـا وطعمنـا . والقُلَـلُ : جَمْـعَ قُلّـةٍ ، وهـي الجـرَّةُ . والحلالُ : أراد بـه النبيذ .

خَـفِ ا للهِ واسْتُرْ ذَا الْجَمَالَ بِبُرْقُعٍ
فَإن لُحْتَ حَاضَتْ فِي الْخُدُورِ الْعَوَاتِقُ [١]

﴿ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ : جرَّحنها بالسكاكين من فَرْطِ الدَّهشة ، فالجرح كأنَّه وقع مراراً في اليد الواحدة ، وصاحبتها لا تشعر لِمَا ذُهِلَت بما راعها من جمالِ يُوسُفَ ، فكأنَّها غابت عن حِسّها .

﴿ وَقُلْنَ حَاشَ للهِ ﴾ : تنزيهاً للهِ سبحانه ، وا للهُ المُنَزَّه عن صفات النَّقص لم يكن ليخلق مثل هذا الخلق الحسن ، ولا يطهره من السُّوء ، وتعجُّباً من قدرته على خَلْقِ مثله ﴿ مَا هَذَا بَشَراً ﴾ : لأنَّ هذا الجمال لم يُعْهَد في البشر ﴿ إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ فإنَّ الجمْعَ بين الجمال الرائق والكمال الفائق والعصمة البالغة من خواصّ الملائكة ﴿ مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ والمركوز في الطّباع حُسْنُ المَلَكِ ، ولذلك نَفَيْنَ عنه البشرية وأثْبَتْنَ له المَلَكِيَّة [٢] .

﴿ قَالَت فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ : بعد أن ضمنت

---

(١) حاضت : من شِدَّة الغُلْمَةِ والشَبَق ، لأنَّ المرأة إذا اشتدَّت شهوتها حاضت . والعواتق : جمع عاتق ، وهي المرأة الشابة . والخدور : جمع خِدْر ، سِتْرٌ يُمَدُّ في جانب البيت للنساء .

(٢) ويضاف إلى براءة يُوسُفَ وعصمته : تقطيع النسوة لأيديهنَّ ، لأنَّهُنَّ دُهِشْنَ من هذا الحُسْن الفائق والجمال الرائق ، فإذا كان النسوة قطَّعن أيديهُنَّ وهُنَّ ما رأينه إلاّ لمحة عابرة ، فما بالك بمَن يعيش معها في بيتها وهي تراه صباحاً ومساءً ، أليس ذلك أدعى لفتنتها من بابِ أولى ، وأنَّ الطلب منها لا منه ؟! ، وأليس في هذا دليل على براءته مِمَّا دعته إليه راعيل . ؟!

امرأةُ العزيز أنّها أَوْقَعَتْهُنَّ في شباكه ، باحت لهُنَّ بذات نفسها على حَدّ قول الشاعر :

لاَ تُخْفِ مَا فَعَلَت بِكَ الأَشْــوَاقُ

واشْرَح هَــوَاكَ فَكُــلُّنا عُشَّــاقُ

هو ذلك العبد الكنعاني [١] الذي لُمْتُنَّني في محبَّتِه وشغفي به ، ولو عاينتُنَّ جماله من قبل لعذرتُنَّني فيه ﴿ **وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ** ﴾ : أقرّت لهُنَّ حين عرفت أنّهُنَّ يعْذُرْنَها ، وكي يُعَاوِنّها في (إلانَةِ عَرِيْكَتِهْ) والعريكَةُ : السنامُ للجَمَلِ . ﴿ **فَاسْتَعْصَمَ** ﴾ : لاذ بمولاه واستعصى عليَّ قِيَادُهُ ﴿ **وَلَئِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ** ﴾ إصرارٌ على التمادي في غيها حتى خلعت حجاب الحياء ووعدت بالسِّجن والإذلال إن لم يستجب لطلبها ، ويمنّيها ما في نفسها من قربه والاجتماع بها ﴿ **لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ** ﴾.

﴿ **قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِنَ الجَاهِلِينَ** ﴾ : ﴿ **قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ** ﴾ : السِّجْنُ بكسر السين ، آثر عندي مِن مؤاتاتها " زناً " نظر إلى العاقبة في عظم هذا الجُرْم وتلك الفاحشة ، وإن كان هذا مِمَّا تشتهيه النفس الأمَّارة وتميل إليه ، والسِّجْنُ مِمَّا تكرهه وتنفر منه ، وإنّما آثر السِّجْنَ ومالَ إليه لكونه أهونُ الشَّرَّيْنِ ، وأخفُّ الضَّرَرَيْن [٢] . وقد أوحى الله إليه : " يا يُوسُفُ ! أنت حَبَسْتَ نَفْسَكَ حيثُ قُلْتَ السِّجْنُ أحبُّ إليَّ ، ولو قلت

---

[١] و كنعاني : نسبة إلى بلاد كنعان ، من نواحي بيت المقدس ، سُمِيَت باسم بانيها ، وهو مِن أولاد نوح عليه السلام .

[٢] القرطبي ١٨٤/٩

العافية أحبُّ إلَيَّ لعوفيت " ، فلمَّا طلب السّجن ابتُلِي به ، وإن كان الأولى به أن يسأل الله العافية ، ولذلك رَدَّ رسولُ اللهِ ﷺ عَلَى مَن كان يقول : (اللّهُمَّ إني أسألك الصبر . فقال : سألتَ الله البلاء ، فاسأله العافية) [1] .

وقُرِئَ (السِّجنُ) بكسر السين على أنَّها اسم للمحبس .

وقُرِئَ (السَّجنُ) بفتح السين على أنَّها مصدر سَجَنَ أي حبسهم إياي في السّجن أحبُّ إلَيَّ .

و " أَحَبُّ " هنا ليست على بابها من التفضيل ، لأنَّه لم يحب ما يدعونه إليه قط ، وإنّما هذان شرَّان ، فآثر أحَد الشرَّين على الآخر ، وإن كان في أحدهما مشقة وفي الآخر لذة ، لكن لِمَا يترتَّب على تلك اللّذة من معصية الله ، وسوء العاقبة ، لم يخطر له ببال ، ولِمَا في الآخر من احتمال المشقَّة في ذات الله . والصبر على النوائب ، وانتظار الفرج ، والحضور مع الله تعالى في كُلّ وقت آثره ثُمَّ ناط العصمة به ، واستسلم لله كعادة الأنبياء والصَّالحين ، وأنَّه لا يَصرِفُ السُّوء إلاَّ هو سبحانه وتعالى .

﴿ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ : وأسند الدَّعوة إلى النسوة مع أنَّ المراوِدَةَ له هي امرأة العزيز ، قيل : لأنَّهنَّ خوَّفنه من مخالفتها ، وزَيَّنَّ له مطاوعتها ، فإنَّهنَّ أمرنه بمطاوعة امرأة العزيز ، وقُلْنَ له : هي مظلومة ، وقد ظلمتَها .

وقيل : بل طلبت كُلُّ واحِدَةٍ أن تخلو به للنصيحة في امرأة العزيز ، والقصد بذلك أن تَعْذِلَهُ في حقّها ، وتأمُرَه بمساعدتها ، فلعلَّه يُجيب ، فصارت كُلُّ واحدة تخلو به على حِدة ، فتقول له : يا يُوسُف اقض لي

---

(١) البحر المحيط ٢٧٣/٦

حاجتي فأنا خيرٌ لـك مِن سيّدَتِك ، تدعـوه كُـلٌّ واحـدة لنفسـها وتـراوِدُه ، فقال : يا رَبّ كانَت واحِدة ، فصِرْنَ جماعـة .

﴿ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ﴾ : أمِل إلى جانِبِهِنَّ بطبعي وما جُبِلَتْ عليه النُّفوس البشرية من الميل إلى الجنس الآخر . والصبوة : الميلُ إلى الهوى ، ومنه الصّبا ، وعليه قول الشاعر :

اختلافُ النّهارِ واللّيلِ يُنْسِي اذْكُرَا لِي الصّبَا وأَيّامَ أُنْسِي

وقُرِئَ (أُصْبَ) من الصَّبابة ، وهي الشوق . وعليه قول الشاعر :

إلَى هِنْـــدٍ صَبَـا قَــلْبِي وَهِنْــــدٌ مِثْلُهَا يُصْــــبِي

﴿ وَأَكُن مِنَ الجَاهِلِينَ ﴾ : من السُّفَهَاء بارتكاب ما يدعونـي إليـه مـن القبيح ، وهو من الجهل بمعنى فعل ما لا يليق من الجهـل ضـد الحِلْـم ، لا ضِـدَّ العِلْم ، على حَدّ قولِ عمرو بن كلثوم في معلّقته :

ألاَ لاَ يَجْهَلَنْ أَحَـــدٌ عَلَيْنَا فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَا

فالجهل بمعنـى السفاهـة وذهـاب الحكمـة والحلـم ، والحكيـم : الحليـم العـالم لا يفعله ، وهذا كُلّه على سبيل التضرُّع والاستغاثـة بجنـاب الله تعـالى كعـادة الأنبياء والصالحين .

﴿ فَاسْتَجَابَ لَـهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّـهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ﴾ :

﴿ فَاسْتَجَابَ لَـهُ رَبُّهُ ﴾ : لأنَّ لفـظَ ﴿ وَإِلاَّ تَصْـرِفْ عَنِّـي ﴾ تضمَّـن طلـب الدُّعاء ، وكأنّـه قال (رب اصرف عنّي كيدهن) فحَالَ بينه وبـين المعصيـة ، وصرف عنه كيدهُنَّ ، وثبّته بالقولِ الثابت حتّى أنّه وَطّـنَ نفسـه علـى مشـقّة السِّجن وكربـه وآثرها على اللّذة المتَضَمّنة للعصيان ، إنّـه هـو السـميع لدعـاء الملتجئين إليه ، العليم بأحوالهم وما يصلحهم ، وما انطوت عليه نيّاتهم .

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ ﴾ : ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ ﴾ : ظهر لهم ﴿ مِن بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ ﴾ الدَّالَّة على براءة يُوسُفَ عليه السَّلام مِن قَدِّ القميص ، وشهادة الشاهِد ، وحَزِّ الأيدي ، وقِلَّة صبرهِنَّ عن لقاءِ يُوسُفَ ، أن يسجنوه كتماناً للقصَّة ألاَّ تشيع في العامَّة ، وليوهموا النَّاس أنَّه ما زُجَّ في السِّجن إلاَّ لأنَّه آثِمٌ كاذبٌ ، وأنَّ امرأة العزيز بريئةٌ مِمَّا قُذِفَت به ..

وكانَ حَرِيٌّ بالعزيز أن يُكَرِّم يُوسُفَ الذي حفظه بالغيب ، ولم يُدَنِّس فراشِه بهذا المنكر الفظيع ، ولكنَّ العزيزَ فَقَدَ كُلَّ مقوِّمات الرجولة الحقَّة ، وأصبح أُلْعُوبة في يد زوجته التي تصرفه كيف شاءت ..

رُوِيَ أنَّه لَمَّا امتنع يوسُف عن المعصية ، ويئسَت منه امرأة العزيز ، قالت لزوجها : لقد فضحني هذا الغُلام العبراني ، وهو يصف للنَّاس حسب اختياره ، وأنا محبوسةٌ محجوبةٌ ، فإمَّا أذنت لي فخرجت إلى النَّاس فاعتذرت وكذَّبْتُهُ ، وإلاَّ حَبَسْتَهُ كما أنا محبوسة ، فحينئذٍ بدا لهم سجنه .[1]

﴿ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ ﴾ : ألجأها الخجلُ مِنَ الناس ، والوَجَلُ من اليأس ، إلى أن رَضِيَت بالحجاب مكان خوف الذهاب ، رجاء أن يَمَلَّ حبسه فيبذل نفسه .

---

[1] وهكذا استبان لنا من خلال عرض شخصية العزيز وامرأته ، ويوسُفَ ، بعضاً من ملامح شخصية العزيز ، فهي شخصية كتومة للسِّرّ ، لا تُذِيع ما يُستقْبَحُ ذكره ، في الوقت الذي تعْرِف حُرْمَ الحَدَث وعِظَم أمره ، كما أنَّها شخصية فاترة هادئة لا تتحرَّك لتدنيس عرض ، ولا تهتز اهتزازاً مُلْفِتاً لخيانةٍ زوجيَّة .

وهكذا عنَّ لهم ﴿ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ ﴾ إلى مُدَّةٍ غير معلومةٍ ، والألوسي ، والفخر الرازي على : (أنَّه سُجِنَ اثني عشر سنة) وقيل : (سبع) . ولا حاجة إلى تحقيق ذلك [1] .

---

(1) قال ابن عباس رضي الله عنهما : عَثَرَ يُوسُفُ ثلاثَ عثرات :

١ - حين (همَّ بها) فسُجِنَ .

٢ - وحين قال للفتى (اذكرني عند ربك) فلبث في السجن بضع سنين .

٣ - وحين قال لإخوته (**إنَّكم لسارقون**) فقالوا : (**إن يسرق فقد سرق أخٌ له من قبل**) .

أقسم رجلٌ على عهد النَّبيِّ ﷺ أن لا يقرب زوجته حيناً من الدَّهر ، فاحتار في مقداره ، فذهب إلى النَّبيِّ ﷺ فوجده نائماً ، فذهب إلى الصِّدِّيق رضي الله عنه فقال له : " لا تقربها العُمْرَ كُلَّه " . فذهب إلى الفاروق عمر رضي الله عنه فقال له : " لا تقربها أربعين سنة " . فذهب إلى عثمان رضي الله عنه فقال له : " لا تقربها سنة كاملة " . فذهب إلى علي رضي الله عنه فقال له : " لا تقربها يوماً وليلة " . فأقبل إلى رسولِ اللهِ ﷺ فحكى له ، فقال له : (**ائتني بأصحابي . أنت يا أبا بكر : كيف أفتيته بهذا**) قال : من قوله تعالى في سورة الصَّافَّات عن يونس وقومه ، قال تعالى ﴿ **فآمنوا فمتَّعناهم إلى حين** ﴾ أي إلى حين انقضاء آجالهم . (**وأنت يا عمر ؟**) قال : من قوله تعالى : ﴿ **هَل أتى على الإنسانِ حينٌ من الدَّهر لم يكن شيئاً مذكوراً** ﴾ وآدم بقي طينة على باب الجنَّة أربعين سنة ، فقلت : لا تقربها أربعين سنة . (**وأنت يا عثمان ؟**) قال : من قوله تعالى : ﴿ **تُؤتِي أُكُلها كُلَّ حينٍ بإذْنِ ربها** ﴾ والنخلة تطرح في السنة مرَّة واحدة ، فقلت : لا تقربها حولاً كاملاً . (**وأنت يا علي ؟**) قال : من قوله تعالى : ﴿ **فسبحان الله حينَ تُمسُونَ وحِينَ تُصْبِحونَ وعشياً وبالليل وحين تظهرون** ﴾ . فقلت : لا تقربها يوماً وليلة . فقال ﷺ : (**خُذْ برأي عليّ ، فهو أيسرُ لك**) . ثُمَّ قال ﷺ : (**أصحابي كالنُّجُوم بأيّهم اقتديتم اهتديتم**) .

قـــراءات :

﴿ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَت هَيْتَ لَكَ ﴾ :

قوله تعالى : ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ ، فيه عِدَّة قراءات :

قُرِئَت (هِيْتَ) بكسر الهاء وفتح التاء من غير همز ، وهي قراءة ابن ذكوان .

وقُرِئَت (هِئْتَ) بكسر الهاء وفتح التاء والهمز ، وهي قراءة هشام .

واعترض الداني على قراءة هشام وقال إنَّها فعل من التهيُّؤ ، فتُضَم التـاء فتقرأ (هِئْتُ) كجِئْتُ ، وقد تبع الدانـي في هـذا أبـا علـي الفارسـي ، وعلَّـل أبو علي الفارسي ذلك ، بأنَّ يُوسُف عليه الصلاة والسلام لم يتهيّـأ لهـا بدليـل قوله تعالى ﴿ وراوَدَتْـهُ ﴾ ، فالمرَاوَدَةُ إنَّما وَقَعَت من طرفها ، ذلك أنَّ الخلـوة لم تتيسَّر لها قبل ذلك . وقُرِئَت (هِئِتُ) بكسر الهاء والهمزة وضم التاء .

وقُرِئَت (هَيْتُ) بفتح الهاء وضم التاء ، وهي قراءة ابن كثير .

وقُرِئَت (هَيْتَ) بفتح الهاء والتاء من غير همز ، وهي قراءة حفص .

وقُرِئَت (هِيْتُ) بكسر الهاء وضم التاء من غير همز .

وقُرِئَت (هَيْتِ) بفتح الهاء وكسر التاء مـن غـير همـز ، وهـي قـراءة الحسن وابن عباس .

و(هَيْتَ) في القراءات المختلفة اسم فعل [(١)] بمعنى هلُمَّ ، أو تعال ، أو بـادر ،

(١) اسم الفعل (هَيْتَ لك) يستوي فيه المذكر والمؤنّث والواحـد والجمـع ، إلاّ أنـّه يُقَـال للمؤنّث (هَيْتَ لَكِ) وللذكور (هَيْتَ لَكُمْ) وللإناث (هَيْتَ لَكُنَّ) .

الفريد في إعراب القرآن المجيد للهمذاني ٣/٤٥ ، الكشف عن وجوه القـراءات وعللها لمكي بن أبـي طـالب ٢/٩٢٨ ، المحتسـب لابـن جـني ١/٣٣٧ ، السـبعة لابـن مجاهد ص ٣٤٧ ، تفسير القرطبي ٢/٣٣٩ ، الدر المصون للسمين الحلبي ٦/٤٦٣

واللام بعدها للتبيين في قوله تعالى ﴿ لَـك ﴾ كأنـَّه قيـل : (لِمَـن التهيُّـؤ ؟) فقيل : (لَكَ) فهو متعلّق بمحذوف (أي هو كائن لك) أو يقدر سؤال لمـن تقولين ذلك ، فقالت : (أقولُ لَكَ) ، و لم يجعل متعلّقاً بهَيْت لأنَّ اسم الفعل لا يتعلّق به الجار والمجرور .

في قوله تعالى : ﴿ قُدَّ مِن قُبُلٍ ﴾ و ﴿ قُدَّ مِن دُبُرٍ ﴾ :

قُرِئَت ﴿ مِن قُبُلٍ ﴾ و ﴿ قُدَّ مِن دُبُرٍ ﴾ : بضم البـاءين مـع جرّه وتنوينـه ، لأنـّه بمعنى خَلْفَ يُوسُفَ عليه الصلاة والسلام ، أو القميص ، وقُدّامه ، وهذه قراءة القُرّاء السبعة .

وقُرِئَت ﴿ مِن قُبْلٍ ﴾ و ﴿ قُدَّ مِن دُبْرٍ ﴾ : بضم الأوّل وتسكين عين الكلمـة تخفيفاً لأنَّ السكون أخف من الحركـة ، مع جرّه وتنوينه ، وهـي قـراءة الحسن وأبو عمرو .

وقُرِئَت ﴿ مِن قُبُلُ ﴾ و ﴿ قُدَّ مِن دُبُرُ ﴾ : بثلاث ضمّاتٍ ، وهي قراءة ابـن إسحاق والعطاردي والجارود .

وقُرِئَت ﴿ مِن قُبْلُ ﴾ و ﴿ قُدَّ مِن دُبْرُ ﴾ : بضم الأوّل وتسكين البـاء وضـم الآخر بَنَوْهُمَا على الضم (كَقَبْلُ وَبَعْدُ) من حيث بناؤهما على ضَم الآخر .

(فَقَبْلُ وبَعْدُ) ومـا شـاكلهما (كَقُـدَّام وأمَـام) تعـرب في ثـلاثِ حـالاتٍ ، وتُبنى في حالةٍ واحدة . تعرب

١ - إن صُرِّح معها بلفظ المضاف إليـه نحـو جئـتُ قَبْـلَ زيـدٍ (فقبـل ظـرف معرب وهي مضاف منصوب على أنـّه مفعول فيه ، وزيدٍ مضاف إليه).

٢ - أن يُحْذَف المضـاف إليـه وينـوي ثبـوت لفظـه ، وعليـه قـراءة مـن قـرأ ﴿ للهِ الأمرُ مِنْ قَبْلِ وَمِنْ بَعْدِ ﴾ فيقـرأ مـن غـير تنويـنٍ لأنَّ المقـدَّر في حكم المذكور فلا تنوين حتى لا يجمع بين التنوين والإضافـة ..
والتقدير : ﴿ غُلِبَـتِ الـرُّوم فِـي أدَنَـى الأَرْضِ وَهُـمْ مِـنْ بَعْـدِ غَلَبِهِـم سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ للهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْل ﴾ الغلب ومن بعده .
٣ - أن يحذف المضاف ولا ينوي شيء البتَّة ، على حَدّ قول الشاعر :

فَسَاغَ لِيَ الشَّرابُ وَكُنْتُ قَبْـلاً
أكـادُ أُغَـصُّ بالمـاءِ الفُـرَاتِ

فهنا جاءت " قَبْلاً " منونـة منصوبة خبراً لكان الناسخة .
أمَّا بناؤها ففي حالةٍ واحدةٍ ، وهي أن يحذف المضاف وينوي إليـه معنـاه دون لفظه ، وعليه قراءة العامَّة في قوله تعالى : ﴿ للهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ﴾ ، فقوله تعالى : ﴿ للهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ﴾ قُرِئَت بالضَّم والبناء ، على أنَّ المضاف إليه حُذِفَ ونُويَ معناه . وقُرِئَت بالجرّ مع عـدم التنويـن ﴿ مِـنْ قَبْـلِ وَمِنْ بَعْدِ ﴾ على أنَّ المضاف إليه حُذِفَ ونُويَ لَفْظُه .
وقُرِئَـت بـالجَرّ والتنويـن علـى أنَّ المضـاف إليـه حُـذِفَ ولَـم يُنـو شـيءٌ لا لفظه ولا معناه ﴿ مِنْ قَبْلٍ وَمِنْ بَعْدٍ ﴾ وهي في هذا على حَدّ قولِ الشاعر

فَسَاغَ لِيَ الشَّرابُ وَكُنْتُ قَبْـلاً
أكـادُ أُغَـصُّ بالمـاءِ الفُـرَاتِ

وقول الآخر :

فما شَرِبُوا بَعْـداً عَلَى لَذَّةٍ خَمْراً
....

مسائل نحوية :

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَت هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّه لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ : ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللهِ ﴾ : معاذ الله مفعول مُطْلَق لفعلٍ محذوفٍ تقديره (أعوذُ بالله معاذاً) ، وهو منصوب على المصدرية ، ومِن جهة المعنى يفيد التكثير (أي معاذ بعد معاذ) ، فهو لا يفتأ يتعوذ بالله ، ويلوذ بمولاه من هذا المنكر الفظيع

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ : الضمير في (إنَّه) للحال والشأن ، أي أنَّ الأمر والشأن إنَّه أحسن مثواي .

ويحتمل أن يعود على الحق سبحانه وتعالى إذا جعلنا الرب بمعنى الخالِق ، أي إنَّه خالقي أحّسن منزلتي وعطّف عليَّ قلب العزيز وزوجه .

وعلى اعتبار أنَّ الضمير يعود إلى الحَقّ سبحانه ، والرب بمعنى (الخالق) فجملة ﴿ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ خبر ثان لإنَّ ، وكأنَّه قال : (إنَّ الله ربي) فأخبر بربوبيته ، و﴿ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ فأخبر بأنَّه أحسن منزلته وعطّف عليه قلب العزيز وزوجته .

وهناك احتمال آخر وهو أنَّ الرَّبَّ بمعنى (السَّيّد) ، والضمير يعود عليه أي إنَّه سَيّدي أحسن مثواي وأكرم وفادتي وعاملني معاملة الأب لابنه .
وجملة (أحسن مثواي) حال ، وإنَّما قدّرنا جملة ﴿ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ حالاً لأنَّ الجُمَل بعد المعارف أحوال ، ورَبُّ معرفة لأنَّه مضاف إلى ياء المتكلّم (ربّي) ويكون ربي خبر (إنَّ) واسمها الضمير ، وجملة أحسن مثواي حال[1] ..

---

[1] انظر : الفريد ٤٧١/٣

لطيفـــة :

في أنَّ يُوسُفَ عليه السـلام كـان محلّ عنايـة المـولى عـزَّ وجـلَّ ، الـذي تعهَّده بلطفه ، فمسبب الأسباب عطّف عليه قلب العزيز الذي أحبـَّه واعتـبره بمثابـة الولد ، وأمر زليخا بأنْ تُكرِم مثواه فقامت بما أُمِرَت بـه خير قيام .

﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّت قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَـا سَيِّدَهَا لَـدَى الْبَـابِ قَالَت مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلاَّ أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ : قولـه تعالى : ﴿ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً ﴾ في (ما) قولان : أنّها (نافية) نفت أن يكون لـه جزاء إلاَّ السّجن ، أو (استفهاميـة) فيكـون الاستفهام إنكارياً وهو يفيد النفي ، أي هل جزاء مَـن أراد بـأهلك سـوءاً إلاَّ السّـجن أو العذاب الأليم ؟ ليس له جزاء إلاَّ ذلك ، وبما أنَّ نفـي النفـي إثبـات ، فـالمعنى (جزاء مَن أراد بأهلك سوءاً السّجن أو العذاب الأليم) ، لأنَّ (ما) نافية أو مفيدة للاستفهام الإنكاري ، و (إلاَّ) استثنائية تفيـد نفـي مـا قبلهـا ، ونفـي النفي إثبات فكأنّها ما سبق أن نفته مـن اسـتحقاق مَـن أراد بأهلـه سـوءاً مـن السّجن أو العذاب الأليم أثبتته بالاستثناء ليُوسُفَ عليه السلام .

قوله تعالى : ﴿ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ مصـدر صريـح عطـف علـى المصـدر المؤول من أنْ والفعل بعدها [إِلاَّ أَنْ يُسْـجَنَ] والتقديـر : مـا جـزاء مَـن أراد بأهلك سوءاً إلاَّ السّجنَ أو العذابَ الأليم .

لطيفـــة :

وهـي أنَّ زليخـا لا يـزال حُـبُّ يُوسُـفَ يعصــف بهـا ولا يبارحهـا ، فاختارت لـه السّجن والعذاب دون القتـل ، إبقـاءً على محبوبهـا ، والعجيـب حقّاً أن يكون الخَصْمُ هو الحكمُ في آنٍ واحِدٍ ..

﴿ **قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ * وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّه مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ** ﴾ : قوله تعالى : ﴿ **إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ** ﴾ الجملة الشرطية من إنْ وفعل الشَّرْط (كان) وما دخلت عليه ، وجواب الشرط (فصدقت) وما دخلت عليه ، تتعلَّق بشَهِدَ لتضمنه معنى القول فهي محكية ، لأنَّ الشهادة تقتضي القول ، فكأنَّه قال : (وشَهِدَ) ، والشهادة لَمَّا كانت في معنى القول جاز أن تعمل في الجمل ، كما هو الحال في القول ، فتكون جملة الشرط في محل نصب مفعول به للقول الذي تضمنته الشهادة (أي شَهِدَ الشَّاهِدُ من أهلها وقال : إنْ كان قميصه قُدَّ من قُبُلٍ فصدقت وهو من الكاذبين) .

ولَمَّا كان كلامُ الشَّاهِدِ يؤدي إلى تبرئة يُوسُفَ عليه السلام ، كما هو الحال لو شهد ببراءته سُمِّي ما قاله شهادة ، وهذا دفع لِمَن يتوهم أنَّه أمر معلَّق على شرط إن كان قميصه قُدَّ من دُبُرٍ فكذا ، وليس تعييناً في براءته ، حيث لم يصرِّح ويقول بأني أشهد ببراءة يُوسُفَ حيث رأيتها تبعته وجذبت قميصه فانقَدَّ من دُبُرٍ ، ولكن كون دلائل الأحوال ، والشواهد أثبتت صحة ما قال به الشاهد من أنَّ قميصه قُدَّ من دُبُرٍ ، فكان ذلك بمثابة الشهادة بصدقه ، وكذب ادِّعاء زليخا فيما جاءت به من هذا البهتان العظيم .

﴿ **يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ** ﴾ : قوله تعالى : ﴿ **يُوسُفُ** ﴾ حذف حرف النداء ، وهذا إيجازٌ حسنٌ ، ويدلّ على قربه من قلب العزيز الذي اتَّخذه كابنٍ له ، وفطنته التي

تدلّ على شِدَّة ذكائه وحضوره ، فلا حاجة إلى (الياء) التي يُنادى بها البعيد والغافل ومَن لا فِطنة له ، فهو كالذّاهِل (١) .

قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ ﴾ والخطاب لزليخا ، أي استغفري الله لذنبك ، حذف مفعوله الأوّل .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِين ﴾ من خطئ إذا أذنب متعمّداً يُقال : خطيءَ يخطأ خطأً إذا تعمّد خلاف الصواب ، وأمّا أخطأ فهو إذا فعله من غير تعمُّد . ﴿ مِنَ الْخَاطِئِين ﴾ : من باب التغليب ، تغليب التذكير على التأنيث ، وهو أبلغ من قوله (إنّكِ خاطِئة) .

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * فَلَمَّا سَمِعَت بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَت إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَئاً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ للهِ مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ : قوله تعالى : ﴿ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَئاً ﴾ : هَيَّأت لَهُنَّ مجلساً فجئن وجلسن متّكِئات على الوسائد والطنافس ، وهذا فعل المترفين المرفّهين المتنعّمين في كُلّ زمانٍ ومكان .

---

(١) ﴿ يُوسُفُ أعرض عَن هذا ﴾ : وهذا من لطف الله بيُوسُفَ عليه السلام ، فالعزيز قد تأكّد من براءته ، ولكن التستُّر على الحُرَم والعورات ، والإعراض عن الفضائح الجنسية تأباه النفس ، ولو كانت في مجتمعٍ جاهليّ ؛ وفي (يُوسُفَ) قراءات : قُرِئَ (يُوسُفُ) بضم الفاء ، و (يُوسُفَ) بفتحها من غير تنوين على إجراء الوقف مجرى الوصل ، ونقلت له حركة الهمزة ، وقُرِئَ (أَعْرَضَ) على أنّه فِعْلٌ ماضٍ .

قوله تعالى : ﴿ حَاشَ لِلهِ ﴾ تنزيهاً للحق سبحانه من صفات العجز ، والتعجُّب من قدرته تعالى على خلق مثل هذا الحُسْن الفائق والجمال الرائق ..

قوله تعالى : ﴿ مَا هَذَا بَشَراً ﴾ هذه (ما) الحجازية ، وهي تعمل عمل (كان) فترفع الاسم وتنصب الخبر ، وقد يجر خبرها بباء زائدة كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .

ولا تعمل عمل (كان) إذا انتقض النفي بإلاَّ كما في الاستثناء المفرَّغ كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ ﴾ .

وأمَّا (ما) النافية التي لا تعمل عمل (كان) فإنَّها تسمَّى (بما) التميمية ، وعليه قول الشاعر :

وَمُهَفْهَفُ الأَعْطَافِ قُلْتُ لَهُ انْتَسِبْ

فَأجَابَ مَا قَتْلُ الْمُحِبِّ حَرَامُ

فالشاعر عندما رأى جمالَ هذه الفتاة ، وسحرته بسهام لَحْظِهَا ، وتمايُلِ قَدّها قال لها انتسبي ، فإنَّ في النَّفْسِ حاجة ، فردَّت عليه أجملَ رَدّ ، وكأنَّها تقولُ له : إنْ كُنْتَ فَذّاً فاعرفني (ما قتلُ المحبِ حرامُ) أنا مِنَ القوم الذين يهملون (ما) ولا يعملونها هل عرفتهم ؟! فأدرك بأنَّ صاحبته تميمية ، وليست حجازية . وهذا في ذكاء بنات العرب ليس بمستغرب .

يقولُ الأصمعي : مررت بماءٍ من مياه العرب ، وإذا بجاريةٍ صغيرة تقول لأبيها وقد كادت قربةُ الماءِ أن تقع مِن عاتقها : يا أبت أدرك فاها ، غلبني فوها ، لا طاقة لي بفيها . يقول : فوالله لقد جمعت العربية في ثلاث كلمات ..

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ ﴾ : قوله تعالى ﴿ لَيَسْجُنُنَّهُ ﴾ جواب قسم مُقَدَّر ، والتقدير (أَقْسَمُوا لَيَسْجُنُنَّهُ) ، (وَلَيَسْجُنُنَّ) أصلُه (لَيَسْجُنُونَنَّ) حُذِفَت نون الرَّفْع لِتَوَالي الأمْثال ، فأصبح (لَيَسْجُنونَّ) فالتقى ساكنان الواو والنون الأولى ، فَحَذِفَت الواو فأصبح (لَيَسْجُنُنَّ) وهو فعل مضارع مرفوع ، وعلامة رفعه النون المحذوفة لتوالي الأمثال ، والفاعل الواو المحذوفة لالتقاء الساكنين .

ما يستفادُ من الآيات :

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَان قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ : ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَان ﴾ : حُمِلَ يُوسُفُ إلى السِّجْن مقيَّداً على حِمارٍ ، وطِيفَ به [1] (هذا جزاءُ مَن يعصي سيِّدَتَهُ) وهو يقول : (هذا أيسرُ من مُقَطَّعَاتِ النِّيرَان وسرابيلِ القَطِرَان) .

واتَّفَقَ أنْ أُدْخِلَ مع يُوسُفَ عبدان من عبيد الملك ، صاحبُ شرابه ، وخبَّازه ، للاتهام في التآمُرِ عليه ، وذلك أنَّ المَلِك (الريَّان) عُمِّر فيهم طويلاً فملُّوه ، فدسُّوا إلى خبَّازه وصاحب شرابه (أنْ يَسُمَّاه) يجعلان السُّمَّ في طعامه وشرابه ، فأجابا ، ثُمَّ إنَّ الساقي لَم يفعله وفعله الخبَّاز ، فلمَّا حضر الطعام قال الساقي للمَلِك : لا تأكل منه فإنَّه مسمومٌ ، فقال الخبَّاز : لا تشرب فإنَّ شرابه مسمومٌ ، فقال المَلِك للساقي : اشرَب فشرِبَ و لم يضُرُّه ، وقال للخبَّاز كُلْ فأبَى ، فجرب في دابَّةٍ فَنَفَقَتْ ، فأمر بسجنهما ، فاستأنسا بيُوسُفَ في السِّجن .

﴿ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً ﴾ : وهو صاحب الشَّراب ، وأصل الكلام إنِّي رأيت في المنام أني أعصر خمراً [2] أي عنباً ، باعتبار ما يؤول إليه وهو الخمر (لأنَّ الخمرَ عصيرُ العنبِ) عادةً .

---

(١) القرطبي ٩/١٨٨

(٢) الشهاب على الخفاجي ٥/١٧٧

ويُطْلَق على العنب اسم الخمر بلغة عمان ، وعلى هذا فلا حاجة للتأويل .

﴿ وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ﴾ وهذه رؤيا الخبّاز ، أحمِلُ خبزاً تأكُلُ الطَّيرُ : تنهش وتقضم بمقدم الفم منه .

﴿ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ : وذلك لأنَّه كان يُعَبّرُ الرؤى للبعض ، أو المراد بقولهم [من المحسنين] أي (العالمين) على حَدِّ قولهم (قيمةُ المرء ما يُحْسِن) أي يعلم . أو المراد (من المحسنين) الإحسان ، لإحسانه إلى أهل السّجن ، لأنَّه كان يعودُ المريض ، ويجمع للمحتاج ، ويساعد الضعيف ، ويواسي المحزونين . أو أنَّهم قالوه (فراسة) لأنَّه نبيٌّ كريمٌ . فأحْسِن إلينا بتأويل ما رأينا إنْ كُنت تعرفه ..

﴿ قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ ﴾ [(١)] : لَمَّا عَلِمَ الصِّدّيق عليه السَّلام أنَّ أحدَهُمَا يُقْتَل ويُصْلَب أخذ في غير الحديث فقال : ﴿ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾ وكأنَّه كره أن يواجه المقتول بالفتوى قبل أن يدعوه إلى الواحِد الأحَد رجاء إسلامه حتى يموت على الخير ، فقال مؤكّداً صدقه في دعواه : ﴿ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾ والمقصود طعام ترزقانه في حال اليقظة مِمَّا يصل

---

(١) قوله : (نبئنا بتأويله) وقوله (إلاَّ نبأتكما) هذا ما يُسَمَّى في علم البلاغة بالمشاكلة . وإلاَّ فالمراد بالأوَّل تعبير الرؤيا المنامية . والمراد بالثاني التفسير وكشف ماهية الطعام وكيفيته ، وليس ذلك رؤيا ، وإنَّما على التحقيق .

إلى السُّجناء من أقربائهم وخلافه ، فكان يُعَينُ لهما طعامهما ، ويأتي الكلامُ على ما ذَكَر ، وخشية أن يحصل الالتباس بأنَّ ما يصنعه من فِعْلِ الكَهَنةِ والمشعوذين ، قال : ﴿ ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ﴾ وهو يقصد من وراء ذلك كُلِّهِ أن يدعوهم إلى التوحيد ، وذلك لا يتأتّى حتى يظهر لهم أنَّه يعلم غيبيات أُخرى غير تعبير الرؤيا ، ولدفع الالتباس والاحتراس من أن يكون ذلك فعل السحرة أو الكُهَّان قال ﴿ ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ﴾ وهذه هي سبيل الأنبياء والذين يحذون حذوهم من العلماء في الدَّعوة إلى الله ، والهداية ، والإرشاد ، فقدَّم لهم شأنه من الإخبار بالغيب ليدلهما على صدقه في الدَّعوة والتعبير .

﴿ ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ﴾ بالإلهام والوحي ، وليس عن طريق التكَهُّنِ أو التَّنجيم .

﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ بَاللهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ خصَّني الله سبحانه بذلك لأنّي ﴿ تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ بَاللهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ تلك هي العِلَّةُ في ذلك التعليم والإلهام الذي أُوتيته .

﴿ واتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ : ونبَّه على أصلين عظيمين وهما : الإيمان بالله ، والإيمان بدار الجزاء ، وكرّرهما على سبيل التوكيد ، ﴿ واتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ وهي المِلَّةُ الحنيفيةُ السمحةُ ، وإظهار أنَّه مِن بيت النبوة لتقوى رغبتهما في الاستماع إليه والوثوق به ، إذ كانا قد أحبَّاه ، وكَلُفَا بحُبه وحُسْنِ أخلاقهِ ، فانتهز يُوسُفُ ذلك فرصةً طمعاً في إيمانهما ، وليأخُذَ المقتولُ بحظِّهِ

من الإيمانِ حتَّى تَسْلَمَ لـهُ آخِرَتُـه [١] ، وعمـلاً بـالحديث : (**لئـن يهـدي ا لله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حُمُرِ النعـم**) .

﴿ **مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِا للهِ مِنْ شَيْءٍ** ﴾ : لا يَصِحُّ لنا معشـر الأنبيـاء أن نُشْـرِكَ بـا لله أي شـيءٍ كـانَ مِـنْ صَنَـمٍ أو مَلَـكٍ أو جِنِـيٍّ أو خلافـه ، ذلـك التوحيـد بإخلاص العبادة لله وحـده (**مِـنْ فَضْـلِ ا لله علينا**) بـالوحي والنُّبـوَّة ، (**وعلـى النَّـاسِ**) فهـو فضلٌ علـى الرُّسُـل والمُرْسَل إليهـم ، فضلٌ على الرُّسُل باصطفـائهم بحمـل الرسـالة والهدايـة ، وفضـل علـى النـاس بإرشـادهم إلى مـا فيـه سـعادة الداريـن ﴿ **وَلَكِـنَّ أَكْـثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ** ﴾ : فضل ا لله عليهم فيشركون ويكفرون ...

﴿ **يَـا صَـاحِبَي السِّـجْنِ أَأَرْبَـابٌ مُتَفَرِّقُـونَ خَـيْرٌ أَمِ ا للهُ الْوَاحِـدُ الْقَهَّار * مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِـهِ إِلاَّ أَسْـماءً سَـمَّيْتُمُوهَا أَنْتُـمْ وَآبَـاؤُكُم مَّـا أَنْـزَلَ ا للهُ بِهَـا مِـنْ سُـلْطَانٍ إِنِ الْحُكْـمُ إِلاَّ للهِ أَمَـرَ أَلاَّ تَعْبُـدُواْ إِلاَّ إِيَّـاهُ ذَلِـكَ الدِّيـنُ الْقَيِّـمُ وَلَكِـنَّ أَكْـثَرَ النَّـاسِ لاَ يَعْلَمُـونَ** ﴾ : ﴿ **يَا صَاحِبَي السِّجْنِ** ﴾ يا ساكني السِّجن ، كأنَّهما لطـول مكثهمـا أصبحـا مـن سُكَّانـه ، كمـا تقـول : أصحـابُ الجنَّـة ، وأصحـابُ النَّـار ﴿ **أَأَرْبَـابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ا للهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّار** ﴾ : ثُمَّ أورد الدليل على بطـلان مـا هُـم

---

[١] فقول الصِّدِّيق عليه السلام : ﴿ **إني تركتُ مِلَّة قومٍ لا يُؤمنونَ با لله وهم بالآخرة هـم كافرون** ﴾ جملة تعليلية ، وكأنَّه يقول : ذلك الإلهام والوحي في تعبير الرؤى لـترك الكُفْر وسلوك طريقه ، وقوله عليه السلام : ﴿ **واتَّبَعتُ مِلَّـة آبـائي إبراهيـمَ وإسـحاقَ ويعقوبَ** ﴾ إظهارٌ إلى أنَّه من بيت النبوة لتقوى رغبة صاحبي السِّجن فيـه والاستماع إلى كلامـه والوثوق به ، فيتحصَّل له ما يريده من الدَّعوة إلى ا لله ، وشرح الدين الحـق وتوحيد ا لله وإخلاص العبادة لـه .

عليه بقوله (أأربابٌ) في صورة الاستفهام حتّى لا تنفر طباعهما من المفاجأة بالدليل ، من غير استفهام ، وهكذا تكون الدعوة بالتدريج حتى تصادف القبول ، ويكون الإذعان ﴿ **ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ .

وجاء بصفة (القهّار) تنبيهاً إلى أنّه سبحانه وتعالى هو المستحق لهذا الوصف دون مَن سواه من هذه الأصنام التي لا تضر ولا تنفع ، وهي عارية عن أي صفة ، وإنّما هي مخلوقة مقهورة .

ثُمَّ استطرد بعد الاستفهام ﴿ **مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً** ﴾ والخطاب لصاحبي السّجن ومَن على دينهما من أهل مصر ﴿ **سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ** ﴾ وقد عنيء بالأسماء المسميات أي ما تعبدون إلاّ أصناماً جمادات ، ثُمَّ أخذتم تعبدونها ، فإنَّ اسم الإله وُضِعَ لمستحقّ العبادة ، وما سَمَّوه آلِهَة لا دليل على استحقاقها للعبادة ﴿ **إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ للهِ** ﴾ في أمر العبادة ، فلا تكون إلاّ للإله ، أو لِمَن أمر بعبادته وهو لا يأمر بذلك ولا يجعله لغيره .

﴿ **إِلاَّ للهِ** ﴾ لأنّه المستحق للعبادة مِن حيث أنّه المُوجِدُ للكُلّ والمَالِك لأمره ﴿ **أَمَرَ** ﴾ على لسان أنبيائه ﴿ **أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ** ﴾ الحقُّ ، وأنتم لا تُمَيّزون المُعْوَج عن القويم ، وهذا من التدرج في الدَّعوة وإلزام الحُجَّة ، **وهو من أُسْلُوبِ الحكيمِ** في الدَّعوةِ إلى الله ، حيث قدَّم الهداية والإرشاد ، والنصيحة والموعظة ، ثُمَّ شرع في تفسير رؤياهما .

بَيَّن لهما أولاً رُجحان التوحيد على اتخاذ الآلهة ، ثُمَّ استدلَّ على أنَّ ما يسمونها آلِهة ويعبدونها فإنَّها لا تستحق الإلَهِيَّة ، ثُمَّ نَصَّ على ما هو

الحق القويم والدين المستقيم ، الذي لا يقتضي العقلُ غيره ، ولا يرتضي العلمُ دونه ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ فيتخبَّطون في أودية الجهالة خَبْطَ عَشْوَاء [١] .

﴿ يَا صَاحِبَي السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَان ﴾ : ﴿ يَا صَاحِبَي السِّجْنِ ﴾ : أمَّا أحدكما وهو صاحبُ الشراب فيسقي ربه خمراً [٢] ، كما كان يسقيه من قبل ، ويعود إلى ما كان عليه ، وقال للآخر : وأمَّا أنت فتدعى إلى ثلاثة أيام فتُصْلَب فتأكل الطَّيْرُ من رأسك . قال : وا لله ما رأيت شيئاً ، قال : رأيتَ أوْ لَم تَرَ ﴿ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَان ﴾ قُطِعَ في الأمر وبُتَّ فيه . وقيل : هذا مخصوص بيُوسُفَ عليه السلام ؛ لأنَّه نبيٌّ يتكلَّم بالوحي ، ولا يلزم غيره ، فلو قَصَّ إنسانٌ رؤياه على آخر ففسَّرها له فلا يلزم وقوعها إذ قد تَصْدُق وقد لا ، والمشهور أنَّ الرؤيا تقع كما تُعَبَّرْ ، ولذا قيل : الرؤيا على جناح طائر ، فإذا " قُصَّ وَقَعَ " .

جاء رجُل إلى أمير المؤمنين سيِّدنا عُمَرَ بن الخطَّاب رضي ا لله عنه فقال : [إنِّي رأيت كأني أعشبْتُ ثُمَّ أجْدَبْتُ ثُمَّ أعْشَبْتُ ثُمَّ أجدَبْتُ . فقال له الفاروق رضي ا لله عنه : أنتَ رَجُلٌ تُؤْمِنُ ثُمَّ تَكْفُرُ ، ثُمَّ تُؤْمِنُ

---

(١) الشهاب على الخفاجي ١٧٩/٥

خَبْطَ عَشْواء : وهي الناقة التي في بَصَرِها ضَعْفٌ تَخبِطُ إذا مَشَت لا تتوقَّى شيئاً .

قال زهير :

رأيتُ المنايَا خَبطَ عَشْواءَ مَنْ تُصِبْ تُمِتْهُ وَمَنْ تُخطِئْ يُعَمَّرْ فَيَهْرَمِ

(٢) قيل : رأى الشرابي رؤياه حقّاً . وأمَّا الخبَّاز فلم يرَ شيْئاً ، بل تحالم وكأنَّه يريد أن يختبر يُوسُفَ الصِّدّيق عليه السَّلام .

ثُمَّ تكفرُ ، ثُمَّ تموتُ كافِراً . فقال الرجل : ما رأيتُ شيئاً . فقال له عُمَرُ : قد قُضِي لك ما قُضِي لصاحِبِ يُوسُفَ] .. وهذه خاصّةٌ بسيدنا عمر رضي الله عنه لأنَّه كان " مُحَدَّثاً " والمُحَدَّثُ : المُلْهَمُ الذي يجري الصوابُ على لسانهِ من غير قصد .

﴿ **وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ** ﴾ : ﴿ **وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا** ﴾ قاله يُوسُفُ للسَّاقي الذي أيقن يُوسُفُ نجاته من القتل ، لأنَّ يُوسُفَ يتكلَّم عن وحيٍ ويقين ، ولا يظن ظَنّاً أو يتخرَّص ، وإنَّما قالَت الآيةُ : ﴿ **لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا** ﴾ فإنَّما هو من باب التأدُّب مع الله ، وخفض الجناح لمولاه ، وكأنَّه يقول : ذلك مقتضى علمي ، وما عندي خلافه ، والعلم عند الله ، ويدفع أن يكون الظَّن هنا بمعنى الشَّك في تعبيره للرؤيا لقوله قبل ذلك ﴿ **قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ** ﴾ أي تحتَّم ما جرى به القدر ، فيظهر أنَّ ذلك بطريق الوحي .

﴿ **اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ** ﴾ يُوسُفُ عليه السلام يقول لساقي المَلِك الذي عَلِمَ أنَّه سيعود إلى حالته الأولى مع المَلِك : اذكر حالي وما أنا عليه من الضنك والظلم والاستبداد الذي وقع عليَّ من غير جُرْمٍ اقْتَرَفْتُهُ ، لعلَّ ذلك يكون سبباً في خلاصي من هذا الكرب بإذن الله وتقديره .

﴿ **عِنْدَ رَبِّكَ** ﴾ والرَّبُّ بمعنى السَّيِّد ، وهذا مشهورٌ في اللُّغة ، قال الأعشى : **رَبِّي كريمٌ لا يُكَدِّرُ نِعْمةً ... وَإِذَا تُنُوشِدَ فِي الْمَهَارِقِ أَنْشَدَا**

إذا نوشد بما في الكتب أجاب ، أي إذا سُئِلَ أعطى . والمهرق : الصحيفة .

وفي الحديث : (**لا يَقُل أحدكم : عبدي ، وأَمَـتي ، وليقُـل : فتـاي ، وفتاتي ، وغلامي**) .

وفي القرآن : ﴿ **اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبّكَ** ﴾ ﴿ **إِنَّهُ رَبّي أَحْسَنَ مَثْـوَايَ** ﴾ ، ويقال لكُلِّ مَن قام بإصلاح شيءٍ وإتمامه (قد رَبَّهُ يَرُبُّهُ) فهو رَبٌّ له . قال العلمـاء : قولـه ﷺ : (**لا يَقُـل أحدكـم ...**) الحديـث الشريف مِـن بـاب الإرشاد إلى إطلاق الاسم الأول ، لا أنَّ إطلاق ذلك الاسم مُحَرَّم ، ولأنَّه قد جاء عنه ﷺ : (**أنْ تَلِدَ الأمـَةُ رَبَّها**) أي مالكهـا وسيّدها ، وهـذا موافـقٌ للقرآن في إطلاق ذلك اللفظ ، فكان محل النَّهي ألاَّ نتَّخِـذ هـذه الأسمـاءَ عـادةً فنترك الأوْلى والأحسن [1] .

وقيل : بل ما جاء في القرآن الكريم في سورة يُوسُفَ عليه السلام جـائزٌ في شريعتهم ، وهناك أيضاً في شريعتهم أنَّ السَّارقَ لا تُقْطَـعُ يَـدُهُ ، ولـذا قـال عليه السَّلام ﴿ **جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَـزَاؤُهُ** ﴾ أي يؤخـذ السَّـارِقُ مقابلَ سرقته . فتأمَّله .

﴿ **فَأَنْسَاهُ الشّـيْطَانُ ذِكْـرَ رَبِّـهِ** ﴾ : أُنْسِـيَ السَّـاقِي أن يذكـر يُوسُـفَ لِرَبِّه ، فتشاغل عن ذكر يُوسُفَ عليه السلام ليقضي الله أمراً كـان مفعـولاً ، على أنَّ بعض أهل العلم يقولون (بـأَنَّ النَّاسِـي هـو يُوسُـفَ عليـه السـلام) ، حيثُ رَكَنَ إلى المخلوق وهو (السَّاقي) وطلب منه أن يشفع له عنـد ربـه ، وهذه كُلُّهَا أقوال لا تنسجمُ مع مقامات النُّبـوَّة . والـذي يرجّحـه السيـاق أنَّ النَّاسي هو (السَّاقي) بدليل الآيـات بعـد ذلـك ﴿ **وَقَـالَ الَّـذِي نَجَـا مِنْهُمَـا**

---

[1] القرطبي : ١٩٥/٩

﴿ وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ فدلَّ على أنَّ الناسي هو (الساقي) وليس (يُوسُفُ) عليه السلام .

هذا والنسيان لا يتنافى مع عصمة الأنبياء ، وهو يجوز عليهم إلاَّ في وجهٍ واحدٍ [وهو الخبر عن الله سبحانه فيما يبلغونه عنه فإنَّهم معصومون فيه] ، وما عدا ذلك فجائز عليهم ، قال ﷺ : (**نَسِيَ آدمُ فَنَسِيَت ذُرِّيَّته**) وقال ﷺ : (**إنَّما أنا بشر أنسى كما تنسون**) ، وفي قصَّة موسى مع الخضر ﴿ **قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً** ﴾ [الكهف : ٦٣] .

﴿ **فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ** ﴾ : والبِضْعُ قِطْعَةٌ من الدَّهر ، مختلفٌ فيها . وفي الحديث أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال لأبي بكر الصِّدّيق رضي الله عنه : (**وكم البِضْعُ**) فقال : ما بين الثلاث إلى السبع . قال : (**اذهب فزايد في الخَطَرِ ومادِدْ في الأجَل**) . وكان ذلك في شأن مراهنة الصِّدّيق رضي الله عنه قريشاً في غلبة الروم على الفرس ، وكان المسلمون يحبون غلبة الروم على فارس لأنَّهم أهلُ كتاب ، وكانت قريشُ لا تحب ذلك ، وعلى هذا فالبِضْعُ سبعُ سنين ، وعليه جرى أكثر المفسرين ، وقال مجاهد [1] : من ثلاث إلى تسع ، والله أعلم .

---

(١) القرطبي : ١٩٧/٩ . وفي قوله ﷺ (وكَم البضْع) إشارة إلى قوله تعالى في سورة الروم ﴿ **في بِضْعِ سنين** ﴾ . قال تعالى : ﴿ **الم * غُلِبَت الرُّوم * في أدنى الأرضِ وهُمْ مِن بَعْدِ غَلَبِهِم سَيَغْلِبُون * فِي بِضْعِ سِنِين * للهِ الأمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْد ويومئذٍ يَفْرَح المؤمِنُون * بنصرِ اللهِ يَنْصُرُ مَن يشاء وهو العزيزُ الرحيم** ﴾ [الروم ١ – ٥] .

رُوِيَ أنَّ فارس غزوا الروم فوافوهم بأذرعات وبصرى ، فغلبوا عليهم ، وبلغ الخبر مكَّة ففرح المشركون وشمتوا بالمسلمين ، وقالوا : أنتم والنصارى أهل كتاب ، ونحن وفارس أمّيُّون ، وقد ظهر إخواننا على إخوانكم ، فلنظهرنَّ عليكم . فقال أبو بكر رضي الله عنه : لا يقْرِر الله أعْيُنَكُمْ ، فوالله ليظهرن الروم على فارس بعد بضع سنين ، فقال له أُبَيٌّ بن خلف اللَّعين : كذبت ، اجعَل بيننا أجلاً أُناحبك عليه ، فناحبه على عشر قلائص من كُلٍّ منهما ، وجعلا الأجلَ ثلاث سنين ، فأخبر به أبو بكر رسولَ اللهِ ﷺ فقال : البضع ما بين الثلاث إلى التسع فزيدْه في الخطر ومادِّهِ في الأجل ، فجعلاها مائة قلوص إلى تسع سنين ، ومات أُبَيٌّ من جرحٍ دعا عليه به الرسولُ ﷺ ، وظهرت الروم على فارس عند رأس سبع سنين وذلك يوم الحديبية ، فأخذ أبو بكر الخَطَرَ من ذريَّةِ أُبَيٍّ فجاء به رسولَ اللهِ ﷺ فقال : تصدَّق به ، وكان ذلك قبل تحريم القمار . وهذه الآيات البينات الباهرة الشاهدة بصحة النبوة ، وكون القرآن الكريم من عند الله عزَّ وجلَّ ، حيث أخبرت عن الغيبِ الذي لا يعلمه إلاَّ العليم الخبير [1] .

وفي الحديث عن رسولِ اللهِ ﷺ قال : (**رحم الله أخي يُوسُفَ لو لم يقل اذكرني عند ربّك لَمَا لَبِثَ في السّجن طول ما لبث**) ، والذي صحَّحه العلماء أنَّ مُدَّةَ لَبْثِهِ في السِّجْنِ سبْعُ سِنِينَ قبل القول ﴿ **اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ** ﴾ وَسَنَتَانِ بعدها ، فيكون مجموعهُ تِسْعَ سِنِينَ ، والاستعانةُ بالعباد في كشف الشدائد وإن كانت محمودةً في الجملة قال تعالى : ﴿ **وَتَعَاوَنُواْ عَلَى**

---

(1) أبو السعود : ٤٩/٤ ، دار إحياء التراث ، بيروت .

الْبِرِّ وَالتَّقْـوَى وَلاَ تَعَـاوَنُواْ عَلَـى الإِثْـمِ وَالْعُـدْوَانِ ﴾ لكـن اللاَّئِـقَ بخصـوص الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام تركـه ..

﴿ **وَقَـالَ الْمَلِـكُ إِنِّـي أَرَى سَـبْعَ بَقَـرَاتٍ سِـمَانٍ يَـأْكُلُهُنَّ سَـبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلاَتٍ خُضْـرٍ وَأُخَـرَ يَابِسَـاتٍ يَـا أَيُّـهَا الْمَـلأُ أَفْتُونِـي فِـي رُؤْيَـايَ إِنْ كُنْتُـمْ لِلرُّؤْيَـا تَعْـبُرُونَ** ﴾ : ﴿ **وَقَـالَ الْمَلِـكُ إِنِّـي أَرَى سَـبْعَ بَقَـرَاتٍ** ﴾ : لَمَّـا دَنَـا الفَـرَجُ لِيُوسُـفَ عليـه السَّـلام رأى المَلِـكُ رؤيـاه ، فجعـل اللهُ الرؤيـا أولاً ليُوسُـفَ بـلاءً وشِـدَّة ﴿ **يَـا أَبَـتِ إِنِّـي رَأَيْـتُ أَحَـدَ عَشَـرَ كَوْكَبـاً وَالشَّـمْسَ وَالْقَمَـرَ رَأَيْتُهُـمْ لِـي سَـاجِدِينَ** ﴾ ، وجعـل الثانيـة بشـرى ورحمـة ﴿ **وَقَـالَ الْمَلِـكُ إِنِّـي أَرَى سَـبْعَ بَقَـرَاتٍ سِـمَانٍ** ﴾ رأى المَلِـكُ الرَّيَّـان بـن الوليـد في منامـه كأنَّمـا خـرج مـن نهـرٍ يـابسٍ سَـبْعُ بقراتٍ سمانٍ في إِثْرِهِنَّ سَبْعٌ عِجَاف - أي مهازيل - والعَجَـفُ شِـدَّةُ الْهُـزَالِ ، وقـد أقبلـت العِجَـافُ على السِّمَان فـأخذن بـآذانهنَّ فـأكلنهُنَّ إلاَّ القرنـين ، ورأى سَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْـرٍ قـد أقبـل عليهِـنَّ سبْعٌ يابسـاتٌ فـأكلنهُنَّ حتـى أَتَـيْنَ عَلَيْهِنَّ فلم يبق منهنَّ شيءٌ وهُـنَّ يابسـات ، وكذلـك البَقَـرُ كُـنَّ عِجَافـاً فلم يزد فيهن شيء مـن أكلِهِـنَّ السِّـمان ، فهالتـه الرؤيـا ، فأرسـل إلى النـاس وأهل العلم [1] .

﴿ **يَا أَيُّـهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ** ﴾ : عَبِّروها لي ﴿ **إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَـا تَعْبُرُون** ﴾ : إن كُنْتُم عالمين بعبارة الرؤى ، وهي الانتقال من المعـاني الخياليـة التي يراها النائم ، إلى المعاني النفسـية ، مِـن عَـبَرْتُ النَّهْـرَ إذا بلغـت شـاطئه .

---

(١) القرطبي ٩/١٩٨ - ١٩٩

﴿ **قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحلَامٍ** ﴾[1] : هذه أخلاط وكوابيس ، وأنت لم تر شيئاً لـه تأويل ﴿ **وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ** ﴾ : عجزوا عن التـأويل . عندهـا قال الساقي : ﴿ **أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ** ﴾ .

تعبرون : أصلُ العَبْرِ : التجاوز من حالٍ إلى حال ، وأمَّا العُبُور فمختص بتجاوز الماء ، إمَّا بسـباحة ، أو في سـفينة ، أو علـى بعـير ، ومنـه عـابرُ النَّهـرِ لجانبــه .

وأمَّـا العِبَـارَةُ فهــي مختصَّــةٌ بالكـــلام العــابر مــن لســان المتكلّــم إلى سَمْعِ السَّـامِعِ . (وعَـبَرْتُ الرُّؤْيـا عِبَـارَةً ، أثبَـتُ مـن عَبَّرتُهـا تعبـيراً) يعــني التخفيف أقوى وأعرف عند أهل اللغة من التشديد ، وكذا المعروف " عَـابِرٌ " لا " مُعَبِّرٌ " . وأنشد المبرد في الكامل لبعض الأعراب :

رأيْـتُ رُؤْيَـا ثُـمَّ عَبَرْتُـهَـا وَكُنْـتُ لِلأَحْـــلامِ عَبَّارا

فهما لغتان جمعهما الشاعر : التخفيف والتشديد ، ولا عِبْرَة بمن أنكر التشديد لكن التخفيف لغة القرآن الفصيحة .

وفي الآيـة دليلٌ على بطلان مَن قال إنَّ الرؤيا علـى أوَّل مـا تُعَـبَّر ، وأنَّ الرؤيا طائرٌ ، إذا عُبِّرَتْ وقَعَتْ ، لأنَّ القومَ قالوا أضغاثُ أحلام و لم تقع الرؤيا كما قالوا ، بل على ما فسَّرها يُوسُفُ الصّدّيقُ عليه السَّلام ، مِن سِنِيِّ الجدب والخصب ، فكان كما عَبَّرَ .

---

(١) أضغاث : جمع ضغث ، وأصله ما جُمِعَ من أخـلاط النبـات والحشيش . قـال تعـالى : ﴿ **وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثـاً فَـاضْرِب بِـهِ وَلاَ تَحْنَـث إِنَّـا وَجَدْنَـاهُ صَـابِراً نِعْـمَ العَبْـدُ إِنَّـه أَوَّاب** ﴾ [ص : ٤٤] .

والأحلام : جمع حُلم . والحُلم بالضم ما يراه النائم .

﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ * يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ [1] وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ : ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا ﴾ من صاحبي السِّجن (وهو الشرابي) ، ﴿ وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ تذكَّر حاجة يوسف بعد جماعة من الزمان مجتمعة أي مُدَّةٍ طويلة .

وقُرِئَ ﴿ بَعْدَ إِمَّةٍ ﴾ أي بعد نِعْمَةٍ ، وهو خَلاَصُهُ من السِّجنِ والقتل وإنعامُ المَلِكِ عليه .

وقُرِئَ ﴿ بَعْدَ أَمَهٍ ﴾ بفتح الهمزة وتخفيف الميم ، أي بعد نسيان ، قال الشاعر :

أَمِهْتُ وَكُنْتُ لاَ أَنْسَى حَدِيثاً   كَذَاكَ الدَّهْرُ يُودِي بِالْعُقُولِ

﴿ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ ﴾ : أُخبركم بتعبير الرؤيا مِمَّن عنده علمها . ﴿ فَأَرْسِلُونِ ﴾ والخطاب للملك : ابعثوني إليه لأسأله .

﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ ﴾ : يُوسُفُ : نداء القريب . أيُّها الصِّدِّيقُ : الكثيرُ الصِّدْقِ المبالغُ فيه ، لأنَّه جرَّبَ أحواله ، وعَرَفَ صِدْقه في تأويل رؤياه ورؤيا صاحبه ، ولا يُقال صدِّيقٌ إلاَّ لِمَن شُوهِدَ منه الصِّدْقُ مراراً ، لأنَّه صيغة مبالغة . ﴿ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ : أعود إلى الملك ومَن عنده لعلَّهم يعلمون تأويلها ، ويعرفون قدرك ومكانتك فيفرج عنك ..

---

[1] السِّمَانُ : الممتلئة لحماً وشَحْماً . والعِجَافُ : الهزيلاتُ ، جمعُ عجفاء ، وهي المهزولةُ .

وإنّما قال : (لَعَلّي أرجع إلى الناس) و (لعلّهم يعلمون) فلم يقطع في الكلام ، و لم يكن حازماً لأنَّه قد يُخْتَرَمُ قَبْلَ أن يصِلَ إليهم ، أو لعلّه داخله الشكُّ ، لَمَّا رأى عجزَ الناس وخاف عجزه عن إفهامهم إياها ، وهذا من الحصافة وسداد الرأي ..

﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأباً فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ : ﴿ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأباً ﴾ : متوالية متتابعة ، لأنَّ معنى تزرعون تدأبون ، وأصل معنى الدأب (التعب) ويُكَنَّى به عن العادة المستمرة ، لأنَّها تنشأ من مداومة العمل اللازم له التعب .

وقُرِئَ ﴿ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً ﴾ بتحريك الهمزة ، ﴿ فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبلِهِ ﴾ لئلاَّ يأكله السوس ﴿ إلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ في تلك السنين . ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ ﴾ يعني تأتي سبعُ سنين مجدبات يأكلُ أهلهن ما قدّمتم لهنَّ من طعامٍ مُدَّخَرٍ . حكى زيد بن أسلم عن أبيه : أنَّ يُوسُفَ كان يضعُ طعام الاثنينَ فيقرِّبُهُ إلى رجلٍ واحدٍ فيأكُلُ بعضه ، حتّى إذا كان يومٌ قَرَّبَهُ له فأكله كُلّه ، فقال يُوسُفُ : " هذا أوَّل يوم من السَّبْعِ الشداد " .

﴿ إلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ ﴾ : تحرزون لبذور الزراعة ، ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاس وَفِيهِ يَعْصِرونَ ﴾ : هذا خبرٌ من يوسُفَ عليه السلام عمَّا لم يكن في رؤيا المَلِك ، ولكنّه مِن علم الغيب الذي آتاه الله إيَّاه ، كُلُّ ذلك إظهاراً لفضله ، وإعلاماً لمكانه من العلم وبمعرفته . ﴿ فِيهِ يُغَاثُ النَّاس ﴾ : يمطرون من الغيث وهو المطرُ ، ومنه قول الأعرابية : (غِثنا ما شئنا) . ﴿ وَفِيهِ يَعْصِرونَ ﴾ : ما يعتصرُ ، كالعنب والزيتون والسمسم

لكثرة الثمار ، وقيل : يحلبون الضروعَ ، لأنّه فيه عصر الضرع ليخرج الدرّ ، وهذه بشارةٌ زفّها يوسُفُ الصّدّيق عليه السلام لهم بعد أنْ أوّل رؤيا البقرات السِمَان والسنبلات الخضر بسنين مخصبة ، والعِجَاف واليابسات بسنين مجدبة ، وابتلاع العِجَاف السمانَ بأكل ما جُمِعَ في السنين المخصبة ، ولعلّه عَلِمَ ذلكَ بالوحي ، لأنَّ هذا الشرح والتفسير لا يكون إلاّ بوحيٍ إلهي ..

وقيل : ﴿ **يَعْصِرُونَ** ﴾ بمعنى : يَنْجَوْنَ من العُصْرَة ، وهي المنجاة والملجأ . قال أبو زبيد :

صَادِياً يَسْتَغِيثُ غَيْر مُغَاثٍ وَلَقَدْ كَانَ عُصْرَةَ الْمَنْجُودِ [(١)]

والمنجودُ : الفَزِعْ . واعتَصَرْتُ بفلانٍ : أي التجأتُ إليه .

وقُرِئ ﴿ **تُعْصَرُونَ** ﴾ بضم التاء وفتح الصاد ، ومعناه : تُمْطَرون ، من قول الله تعالى : ﴿ **وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً** ﴾ [النبأ : ١٤] .

﴿ **وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ** ﴾ لمّا رجع الساقي إلى الملك وأخبره تعبير يوسف للرؤيا ، استحسن الملك ذلك ، وقال : أحضروه لي لأسمع منه ، فلمّا جاءه الرسول تأبّى على الخروج ، وقدَّم حال النسوة ، لتظهر براءة ساحته ، ويُعلم أنّه سُجِنَ ظُلْماً ، فلا يقدر الحاسد أن يتوسل به إلى تقبيح أمره ، وانظر إلى حصافة الصّدّيق ولباقته ، حيث أخرج الكلام بطريق السؤال ، لأنَّ السؤال عن شيءٍ " ما " ، يهيج الإنسان ويحرّكه للبحث عنه ، لأنّه يأنف من جهله وعدم علمه به ، ولو قال : (سَلْهُ) أن

---

(١) قاله في رثاء ابن أخته ، وكان مات عطشاً في طريق مكّة .

القرطبي : ٣٠٥/٩

يفتش ، لكان تهييجاً لـه عن البحث عنه وفيه جراءة عليه ، فربَّما امتنع الملك عنه و لم يلتفت إليه ؛ وتَرَكَ يُوسُفُ عليه السلام ذكر امرأة العزيز تأدُّباً وتكرُّماً ، ولذا حملها ذلك على الاعتراف بنزاهته وبراءة ساحته .

فأرسل الملك إلى النسوة ﴿ **قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ** ﴾ : هَل وجدتُنَّ منه ميلاً إليكُنَّ ؟ - وتقدَّم أنَّ كُلَّ واحدة قد أغرته بنفسها ، وقالت له : أنا خيرٌ من سيِّدتك ، فأجب طلبي - ﴿ **قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ** ﴾ تنزيهاً لله ، ومعاذاً لله ، ما علمنا عليه من مقارفة للفاحشة .

أمَّا امرأة العزيز فتغلبها أُنوثتها حين ترى الوقائع وهي تكشفها فتقول :

﴿ **الْآنَ حَصْحَصَ** [1] **الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ** ﴾ . وهذا الاعترافُ من زليخا لطفٌ من المولى سبحانه وتعالى ، وكرم لأوليائه ، لأنَّ الاعترافَ سيِّدُ الأدلَّة ، وهو أقوى مِن الشهادة ، فجمع الله سبحانه وتعالى ليُوسُفَ عليه السلام بين شهادة النسوة وإقرار امرأة العزيز ، حتَّى لا يخامر الشَّكُّ أحَداً في براءة يُوسُفَ فيما أُلْصِقَ به من تُهَم هو منها بُراء ، إنَّه إقرارٌ صريحٌ من امرأة العزيز لم يكن ليتوقَّع يُوسُفُ

---

(١) حصحص الحق : ظهر وبان ، وأصل الحص استئصال الشيء ، يُقَال : حَصَّ شعره ، إذا استأصله جزّاً ، وحصحص الحق : أي انقطع عن الباطل بظهوره وثباته .
وهو من حصحص البعير إذا ألقى مباركه ليناخ ، يقول حميد بن ثور الهلالي :

فحصحص في صم الصفا ثفناته ... وناء بسلمى نوأةً ثُمَّ صمما

أي بَرَكَ على الصُّمِ مِن الحجارة ثُمَّ ناء : أي نهض بسلمى بعد أن ركبت على ظهره ، ومضى في سبيله لا يلوي على شيء ، وفيه إظهار الحزن على محبوبته سلمى ، وكناية عن الفراق والبعد .

صدوره عنها ، وهي الجانية التي ظلّت مُصِرَّة على باطلها السنين الطّوال ، فأقرّت بما لا تقر به المرأة ، إلاّ وهي مغلوبةٌ على أمرها ، وباحت بما كتمته عن زوجها كُلّ هذه السنين ، وهي تصور غريزة المرأة حينما تكون مندفعةً في شهوتها ، وهي تسعى بكل ما أوتيت من قوّةٍ لتحقيق غرضها الأثيم ، فهي أسيرةُ شهوتها ، وهي ضعيفة الإرادة أمامها ﴿ **أَنَا رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ** ﴾ .

يقول الصَّادِقُ الأمينُ ﷺ : (**يرحم الله يُوسُفَ ! لو كنتُ أنا المحبوس ثُمَّ أُرْسِلَ إليَّ لخرجتُ سريعاً . إنْ كانَ حليماً ذا أناة**) .

وفي حديثٍ آخر : (**رحِمَ الله أخي يُوسُفَ ! لو لبثتُ في السّجن ما لبث فيه لأجبتُ الدَّاعي**) .

وهذا من سَيّد الأولين والآخرين على جهة المدح لِيُوسُفَ عليه السلام والتّواضُع منه ﷺ ، وإلاّ فإنَّ سيّدنا رسول الله ﷺ لقى من العنت والأذى ما تنوء به الجبال الرواسخ ، وصبر ، فهو سَيّدُ الصَّابرين ، وسيّد أُولي العزم من الرُّسُل ولا فخر ..

وإلاّ فصبر يوسُفَ فيه فوائد منها :

١) إظهارُ براءته مِمَّا أُلْصِقَ به من تهمٍ ، وذلك المنكرِ الفظيع .

٢) أراد أن يزداد منزلةً عند الملك فيصير سائساً لِلْمُلْكِ ، وحافظاً للدولة ، ألا تراه كيف قال : ﴿ **اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ** ﴾ .

٣) ثُمَّ اعتراف النسوة ، فإنَّ فيه إزالة آثار ما خلفته تلك الوشاية في نفسه الطاهرة من جِراح ، وبذلك تتحقّق منزلته من العِفّة والخير ، ولا يمكن

أن ترمقه العيون بالصَّغَار ، ولا يتمكن الحاسد من الوشاية به والتنزيل من قدره بتلك السابقة التي زُجَّ بها في السجن ظلماً وعدواناً ، وحينئذٍ يخرج للإحظاء والمنزلة الرفيعة ، وهو شريفُ القدرِ ، ناصعُ الجبينِ ، وجهه يتلألأ بنور الإيمان .. [١]

﴿ **ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ** [٢] **وَأَنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ** ﴾ قاله يُوسُفُ عليه السلام بعد أن أخبر باعتراف امرأة العزيز ، قال ذلك : أي امتناعي عن الخروج من السجن والتثبُّت حتّى تظهر براءتي ليعلم عزيز مصر أني لم أخنه في حُرُمِهِ بالغيب ، ﴿ **وَأَنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ** ﴾ فلا ينفذه ولا يسدده بسبب خيانتهم ، وفيه تعريض بامرأة العزيز في خيانتها ، وبالعزيز حين ساعدها بعد ظهور الآيات على سجنه ، كما فيه تنبيه على أنَّه سبحانه يهدي كيد مَن لا يقصد به الخيانة ، ككيد يُوسُف بإخوته ﴿ **كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ** ﴾ ، وهذا ما يُسَمَّى بالمشاكلة .

ثُمَّ يقول في تواضعٍ جمّ : ﴿ **وَمَا أُبَرِّيءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ** ﴾ : ما أُبَرِّيءُ نفسي من الزلل ، ولا أزكيها ، لأنَّها نفس من جنس الأنفس البشرية تأمر بالسوء وتحمل على الشهوات ، وتستعمل القوى والجوارح في أثرها كل الأوقات إلاَّ ما رحم ربي ، فعصمه من ذلك كالأنبياء

---

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن ، للسيوطي ٣/١٥١

(٢) ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب : وقيل الضمير يعود للملك ، أي ليعلم الملك أني لم أخن العزيز ، أو لم أخن الملك ، لأنَّ خيانة وزيره خيانة له .
الشهاب الخفاجي على البيضاوي ٥/١٨٧ ، البحر المحيط ٦/٢٩٣

والرسل عليهم السلام .

﴿ **وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ** [١] **قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ** ﴾ : ﴿ **وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ** ﴾ : فلمّا خرج من السّجن دعا لأهله فقال : " **اللَّهُمَّ عَطِّفْ عليهم قُلُوبَ الأخيارِ ، ولا تُعَمِّ عليهم الأخبار** " . وكتب على باب السّجن : " **هذه منازلُ البلاءِ ، وقبورُ الأحياءِ ، وشماتةُ الأعداء ، وتجربةُ الأصدقاءِ** " ، ثُمَّ اغتسل وتنظّف من درن السّجن ، ولبس ثياباً جُدُداً ، فلمّا دخل على الْمَلِك قال : " **اللَّهُمَّ إني أسألك بخيرك من خيره ، وأعوذُ بعزَّتِكَ وقُدرَتِكَ مِن شَرّه** " ، فلمّا فعل يُوسُفُ ذلك ، وتحدَّث مع الملك ، ورأى الملكُ حُسْنَ مَنْطِقِه ، والمرءُ مخبوءٌ تحت لسانه ، وشَاهَدَ منه الرُّشْدَ والدَّهاء ، قال : ﴿ **إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ** ﴾ : ذو مكانة ومنزلة ومؤتمن على كُلّ شيء ، وأجلسه على السرير ، وفوَّض إليه أمره ، وتوفي قطفير في تلك الأيام ، فنصَّبه منصبه ، وزوَّجه من زليخا زوجه ، فوجدها عذراءَ ، وَوُلِدَ له منها " أفراثيم ، وميشا " ، والله تعالى أعلم .

وأقام العدلَ بمصر ، وأحبه الرجالُ والنساءُ ، وأسلم على يده (الملك) وكثيرٌ من الناس ...

﴿ **قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ** ﴾ : لمّا كلّمه الملك وعبَّر له رؤياه ، قال له : ما ترى أيُّها الصّدّيق ؟ قال : تزرع في سني

---

[١] ويقال : إنَّ يوسف عليه السلام كان يحسن العربية والعبرية ، فكلّم الملك بهما فضلاً عن لغات أخرى ، وقال للملك : العربية لسان عمي إسماعيل ، والعبرية لسان آبائي .

جواهر ٤٨/٧

الخصب زرعاً كثيراً ، فإنَّك لو زرعت فيها على حجرٍ نبت ، وتبني الخزائن وتجمَعُ فيها الطعامَ ، فإذا جاءت السنونُ العِجَافُ بعْتَهَا ، فيحصلُ مالٌ عظيمٌ ، فقال له : مَنْ لي بهذا ؟! ﴿ **قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ** ﴾ .

وفيه جوازُ طلبِ الولايةِ ، وإنَّما طَلَبَ يُوسُفُ الولايةَ لأنَّه عَلِمَ أنَّه لا أحد يقوم مقامه في العدل والاصلاح ، وتوصيل الحقوق إلى أصحابها .. ولو علم إنسانٌ مِن نفسه أنَّه يقوم بالحق في القضاء والحسبة ، ولم يكن هناك مَنْ يصْلُحُ ولا يقوم مقامه لتعيَّن ذلك عليه ، ووجب أن يتولاَّها ، ويسأل ويخبر بصفاته التي يستحقها به من العلم والكفاية ، وغير ذلك ..

ومَن لا يجد في نفسه القدرة فلا . كما جاء في الأثر : (**عن أبي ذرّ قال : قلت : يا رسول الله ، ألا تستعملني ؟ قال : فضرب بيده على مَنْكِبي ، ثُمَّ قال : يا أبا ذرّ إنَّك ضعيف ، وإنَّها أمانةٌ ، وإنَّها يومَ القيامةِ خزيٌ وندامةٌ ، إلاَّ مَن أخذها بحقّها وأدَّى الذي عليه فيها**)[1] . وعن سعد بن عبادة رضي الله عنه قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : (**ما مِن أمِيرِ عشرة إلاَّ يؤتى به يوم القيامة مغلولٌ لا يَفُكُّه مِنْ ذلك الغِلّ إلاَّ العدلُ ، ومَا مِن رجلٍ قرأ القرآن فنسيه إلاَّ لقي الله يوم يلقاه وهو أجذم**)[2] .

---

(١) صحيح مسلم ، بتعليق محمَّد فؤاد عبد الباقي ، كتاب الإمارة ، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة ١٤٥٧/٣ . الطبعة الأولى ١٣٧٥ هـ .
والحديث أصل عظيم في اجتناب الولايات لا سيما لِمَن كان فيه ضعف عن القيام بوظائف تلك الولاية .

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل وبهامشه كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ٢٨٥/٥ ، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر ، بيروت .

﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَشَاءُ وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَا لِيُوسُفَ ﴾ : من الاقتدار على أرض مصر ﴿ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ﴾ : ينزل من بلادها حيث يهوى ، ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَشَاءُ ﴾ : وذلك خاص بالمؤمنين ، حيث يُثاب المؤمن على حسناته في الدنيا والآخرة ، والكافر يعجل له الخير في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق ، على حَدٍّ : (**إنَّ ا لله يعطي الدنيا لِمَن يحب ولمن لا يحب ، ولا يعطي الآخرة إلاَّ لمن يحب**) ، ﴿ وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ بل نوفيهم أجورهم في الدنيا والآخرة عاجلاً وآجلاً ﴿ وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ لأنَّه الدائم الذي لا يفنى ولا ينقطع .

قال الشاعر :

أما في رسولِ ا للهِ يُوسُفَ أُسوَةٌ لمثلك محبوساً على الظُّلْمِ والإفْكِ
أقام جميل الصَّبر في الحبس برهة فآل به الصَّبرُ الجميلُ إلى المُلْكِ

لطيفــة :

اعلم أنَّ من جرَّ البلاء على يوسف وسجنه سبعة هم : النسوة الخمس ، والعزيز ، وامرأته ، والمرئي في الواقعة سبعةُ أشياء : البقرات السمان ، والعجاف ، والسنبلات الخضر ، واليابسات ، وسُجِنَ يوسُفُ سبع سنين على الراجح ، فكان أنِ ابتلاهم ا لله بسبعٍ عجافٍ جدباوات جزاء على سيِّ مكثه في السّجن عليه السلام .

﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ : الذين يحسنون أعمالهم وأخلاقهم ، ويحسنون إلى النّاس ، فنجعل النّاس يودّونهم ،

ويحبونهم ، ويملّكونهم ، ونرفعهم على الجميع في الدنيا ، كما في أمر يوسف وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً ﴾ أي يُلْقِي المحبّة لهم في القلوب .

﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ﴾ : دخلوا على يوسُفَ فعرف أنّهم إخوته ، فرْقٌ بيْن شخصية يُوسُف وشخصية إخوته ، فبصيرة يوسِف فيها إشراقة وأنوار متلألئة لم يَعْلُها الصدأ الذي تصنعه المعصية ، حتّى استطاعت أن تكشف الحقيقة ، فيلوح لها أنّ هؤلاء هم إخوة يوسف .. أمّا شخصية إخوته فلا زالت شخصية مطمورة فيها صدأ ، حتّى لم تر الحق حقّاً ، ومِن ثمَّ لم تتعرَّف على شخصية يُوسُف ، ولم تفطن إلى أنّه هو الشخص الذي كادوا له كيداً حتّى دبَّروا له الحيلة ، وصنعوا به ما صنعوا .

دخلوا على يُوسُفَ فعرف أنّهم إخوته ، ولكنّهم لم يعرفوه لهيبة المُلْك ، وبُعْدِ العهد ، ومفارقتهم إيّاه في سِنِّ الحداثة ، ونسيانهم إيّاه ، وتوهُّمهم أنّه هلك ، وبُعْدُ حاله التي رأوه عليها حين فارقوه ، وقلّة تأمُّلهم في حُلاَه من التهيب والاستعظام ، وكان بين إلقائه في الجُبِّ وبين دخولهم عليه اثنتان وعشرون سنة ، وكان سبب مجيئهم ما نزل بالنّاس من الشِّدَّة والضّيق والقحط ، الذي أصاب أرض كنعان ، فبعث يعقوب ولده للميرة ، وكان يوسُفُ حين نزلت الشِّدَّة يجلس للبيع بنفسه ، فلمّا دخلوا على يُوسُفَ قال كالمُنْكِرِ عليهم : ما أقدمكم إلى بلادي ؟ قالوا : جئنا للميرة . قال : لعلّكم عيون (جواسيس) ؟ قالوا : " معاذ الله " . قال : فَمِن أيْنَ أنتُم ؟

قالوا : مِن بلاد كنعان ، وأبونا يعقوب النَّبيّ عليه السلام . قال : وله أولاد غيركم ؟ قالوا : نعم ، كُنَّا اثني عشر ، فذهب أصغرنا وهلك في البرية ، وكان أحبنا إليه ، وبقي شقيقه فاحتبسه ليتسلَّى به ، وجئنا نحن العشرة ، فأمر بإنزالهم وإكرامهم .

﴿ **ولَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ** [1] ﴾ : الطَّعام الذي امتاروه ﴿ **قَالَ ائْتُونِي بَأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ** ﴾ ائتوني ببنيامين حتَّى أصدِّقكم ، ورغَّبهم في ذلك بأن أعطاهم حِمل بعير زائد لأخيهم بنيامين ، وشرط عليهم في المرَّة القادمة إحضار أخيهم بنيامين ليعلم صدقهم .

كُلُّ هذه الحيل خطها يُوسُفُ الصّدِّيق بأمرٍ من ربه حتى تعمل إخوته على أن يعود إليه بنيامين ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، ولذلك كان ردُّهم دالاً على ذلك ، حيث قالوا : ﴿ **سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ** ﴾ على معنى إنَّنا سنجتهد في طلبه ونحتال في انتزاعه من يد أبيه .

﴿ **أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ** ﴾ تحريضٌ لهم على الاتيان ببنيامين حيث رخص لهم السعر ، وكال لهم بمكيالٍ وافٍ ، وأنزلهم في أحسن منزلٍ ، وأحسن ضيافتهم ووفادتهم ..

---

[1] الجَهَازُ : قُرِئَ بكسر الجيم ، وفتحها ، يُقَال : جَهَّزْتُ القوم تجهيزاً ، أي تكلَّفت لهم بجهازهم للسفر .

وجَهَازُ العَرُوس : ما يحتاج إليه عند الإهداء إلى الزوج .

والجِهَازُ – بالكسر – للميت ، ما يحتاج له في وجهه من كفن وخلوق ... الخ .

وبالكسر لغة رديئة . لسان العرب : المجلَّد السابع

﴿ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلاَ تَقْرَبُونِ ﴾ [1] إن لم تأتوني بأخيكم فليس لكم عندي بعد اليوم ميرة ، ولا تقربوا بلادي مرّةً ثانية ، رغّبهم ثُمَّ توعَّدهم ، وهو لم يُرد طردهم ولا إبعادهم ، لأنَّه على العَوْد حثَّهم ، وإنَّما حتَّى تعمل إخوته على أن يعود إليه بنيامين ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، ولذلك كان ردُّهم دالاًّ على ذلك ، حيث قالوا : ﴿ سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾ على معنى إنَّنا سنجتهد في طلبه ونحتال في انتزاعه من يد أبيه ..

نَعَم . لقد طال الوقت على يعقوب ، و لم يحظ برؤية يوسف ، إذ أنَّ يوسُفَ طلب من إخوته عند المكيال أن يحضروا له أخاهم بنيامين ، و لم يطلب أن يحضروا أباه ﴿ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ ﴾ ، وكُلُّ هذه الحِيَل اختطَّها يُوسُفُ بأمرٍ من ربِّه ، والحقُّ سبحانه وتعالى يريد بهذا أن يضاعف الأجر ليعقوب ، لأنَّ عظم البلاء من عظم الجزاء ، وأنَّ ا لله تعالى إذا أحبَّ قوماً ابتلاهم ..

﴿ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُواْ بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ : اجعلوا أثمان ما اشتروه من الطعام في رحالهم . قال ابن عباس : النّعال ، والأدم ، ومتاع المسافر يُسَمَّى رَحْلاً ، كُلُّ

---

[1] ﴿ فإن لَم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون ﴾ : وهذه خير سياسة ، بحيث إذا كان الرجل مِمَّن يساقون بالعصا فقد نالها ، أو بالحلم والفضل فقد ناله ، فيُوسُفُ أغدق عليهم العطاء ، وزادهم حمل بعير ، ورغّبهم ثُمَّ توعَّدهم ﴿ فإن لَم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون ﴾ ، وهذا جمع بين اللين والشدَّة ، شِدَّةٌ في غير عنف ، ولينٌ في غير ضعف .

ذلك توسيعاً عليهم ، وترفُّقاً بهم ، وخشية ألاّ يكون عند أبيهم ما يرجعون به ، ولعلّ معرفتهم بذلك تدعوهم إلى الرجوع وبحوزتهم بنيامين .

﴿ **فَلَمَّا رَجَعُواْ إِلَى أَبِيهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ : تلمس شِدَّة الجَدَل مع قُوّة الحُجَّة من إخوة يوسُفَ ، ولكن في هذه المرَّة بدأ يعقوب عليه السلام ، وقد ساوره الشّكّ فيهم ، حتّى قال : ﴿ **هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ** ﴾ [1] ولكنّه وقد قدّم الولد لهم حتى يأتوا له بالميرة ، فلا يكونُ سبباً في هلاكهم من الجوع ، يربط ذلك كُلّه بقدرة الله عزّ وجلّ فيقول : ﴿ **فَاللهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** ﴾ توكّلتُ عليه ، وفوّضتُ أمري إليه ، فهو يمنّ عليّ بحفظه ، ولا يجمع عليّ مصيبتين ، مصيبة يوسُف وفقده ، وتقدير فقد بنيامين . ولذا رُويَ أنّ الله تعالى قال : (**وعِزّتي وجلالي لأردنّهما عليك إذ توكّلتَ عليّ**) ، ﴿ **وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَاعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ** ﴾ [2] .

﴿ **قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ** ﴾ : ويعقوب إذ يُرسل معهم بنيامين يذكرهم بعهد الله وميثاقه ، وفي ذلك لونٌ رائعٌ من الإيثار ، ودليلٌ قويٌّ على فطنة يعقوب وذكائه ، حيث إنّه تردّدَ في البداية ، والمؤمن لا يُلْدغ مِن جُحْرٍ مرّتين ، ولكنّ ذلك كُلّه في سبيل لقمة

---

[1] على حَد المثل القائل : (كيف آمنك وهذا أثر فأسك) .

[2] الوَسق : حمل البعير . والوتر : حمل البغل والحمار .

العيش ، وإحياء النفوس المجهدة ، ﴿ **قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ** ﴾ : أي إلاَّ تُغلَبُوا فلا تقدروا على تخليصه . قال مجاهد : إلاَّ أن تموتوا كُلُّكُم فيكون ذلك عذراً عندي ﴿ **فَلَمَّا ءاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ** ﴾ حلفوا بالأيمان المؤكَّدة على ردِّه ﴿ **قَالَ اللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ** ﴾ : شهيد ورقيب ، والله نعم الشهيد .

وتتجلَّى في يعقوب عاطفة الأُبوَّة الكامنة ، فبالرغم من أنَّه كان ملهماً بأنَّ أولاده صنعوا بيوسُفَ ما صنعوا ، وأضمروا له الحقد الدفين ، مِمَّا سبَّبَ له هذه المحنة التي فيها فقد ولديه ، إلاَّ أنَّه كان يتمنى لأولاده كُلَّ خير ، فيبدو رقيق القلب عليهم ، يحنّ لهم حتَّى إنَّهم إذا أرادوا أن يدخلوا مصر لا يدخلوها دفعة واحدة حتَّى لا يتعرَّضوا لحسد الحُسَّاد ، ونظرة العين الطائشة ، فهو يؤمن بالحسد ، ويقر أذى العين ، وإن كان ذلك مِن قضاء الله سبحانه وسلطانه ﴿ **وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ** ﴾ فهو إن أمرهم بأخذ الحيطة والحذر ، إلاَّ أنَّه يرى أنَّ حكم الله نافذ ﴿ **وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ للهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ** ﴾ : أي لا أدفع عنكم بحيلتي شيئاً مِمَّا قضاه الله ، على معنى الحذر لا ينجي من القدر ، وهو بذلك كان مؤمناً بربه أشد الإيمان ، حيث أنَّه ربط بين القدر والحذر ، ومِن ثَمَّ نرى أنَّ الله عزَّ وجلَّ أثنى عليه كُلّ الثناء ، فقال معقِّباً على هذا ﴿ **وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ** ﴾ .

وقد كان إخوة يوسُف ذوي جمال وأبهة ، مشتهرين في مصر بالقربة والكرامة عند الملك ، فخاف عليهم يعقوب أن يدخلوا كوكبة واحدة

فَيُعَانُوا . والعينُ حق ، وعنه ﷺ : (**لو كان شيء سابق القدر ، سبقته العين**) .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يعوّذ الحسن والحسين فيقول : (**أعيذكما بكلمات الله التامَّة من كُلِّ شيطانٍ وهامَّة** [١] ، **ومِن كُلِّ عينٍ لامَّة** [٢]) ويقول : (**إنَّ أباكما إبراهيم كان يعوِّذ بهما إسماعيل وإسحاق عليهم الصلاة والسلام**) .

﴿ **وَلَمَّا دَخَلُواْ مِن حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ** ﴾ مِمَّا قضاه وقدَّره ، كما في الحديث : (**لا يُغْنِي حَذَرٌ مِنْ قَدَرٍ**) ، ولهذا يسعى العبد ويجتهد ، مع العلم بأنَّ المُقَدَّر كائنٌ . ﴿ **وَلَمَّا دَخَلُواْ مِن حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم** ﴾ مِن أبواب متفرقة في البلد ﴿ **مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ** ﴾ رأي يعقوب واتّباعهم له ﴿ **مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ** ﴾ مِمَّا قضاه وقدَّره ، فَسُرِّقُوا ، وأُخِذَ بنيامين بوجدان الصُّواع في رحله ، وتضاعفت المصيبة على يعقوب بفقد وَلَدَيْه يُوسُفَ وبنيامينَ ﴿ **إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا** ﴾ : أي ولكن ﴿ **حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ** ﴾ ، يعني شفقته عليهم وتحرُّزه من أن يُعانُوا ﴿ **قَضَاهَا** ﴾ أظهرها ووصَّى بها ﴿ **وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ** ﴾ بالوحي ، ولذلك قال : وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ ولم يغترَّ بتدبيره ﴿ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ** ﴾ سِر القدر وأنَّه

---

(١) الهامَّةُ : واحدة الهوامّ ، وهي الحيَّات وكُلّ ذي سُمّ يقتل ؛ وما لا يَقْتُل وَيَسُمُّ : هو السوَّام ، جمع سامَّة كالزنبور .

(٢) اللامَّةُ : ذات اللَّمم وهو الضَّرَر من أَلَمَّ وَلَمَّه بمعنى جمعه أي جامعة للشر على العيون .

لا يُغْنِي عن الحَذَر .

﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِس بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ : لقد أخذه الحنين والشوق إلى أخيه الشقيق (بنيامين) بعد أن رأى إخوته جميعاً ، فقال له : أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالِك ؟ قال : مَن يجد أخاً مثلك ، ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل ، فبكى يُوسُفُ وقام إليه وعانقه وقال : ﴿ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ ﴾ : أخبره بذلك واستكتمه ﴿ فَلاَ تَبْتَئِس بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ : لا تحزن بما فعلوا بنا فيما مضى ، فإنَّ الله قد أحسن إلينا وجمعنا بخير ، يقول المفسِّرون : لمَّا دخل إخوة يُوسُف عليه أكرمهم وأحسن ضيافتهم ، ثُمَّ أنزل كُلَّ إثنين في بيت ، وبقي (بنيامين) وحيداً فقال : هذا لا ثاني له فيكون معي ، فبات يُوسُفُ يضمه إليه ويعانقه ويشم فيه رائحة يعقوب وأمـّه ، وقال له : أنا أخوك يُوسُف فلا تحزن بما صنعوا ، ثُمَّ أعلمه أنـَّه سيحتال لإبقائه عنده وأمره أن يكتم الخبر .

﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ وهذا من الحيل الدالـَّة على قوَّة الفطانة والحكمة الرصينة في استبقائه أخاه بنيامين بوضْع صواع الملك في رَحْلِه ليأخذه في مقابله ، وهي شريعة بني إسرائيل في ذلك العهد ، حيث إنَّهم يأخذون السارق في مقابل سرقته ، ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا

الْعِيرُ [(١)] **إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ * قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ * قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاء بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ * قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ * قَالُواْ فَمَا جَزَآؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ * قَالُواْ جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ** ﴾ : أقبل منادٍ : يا أصحاب الإبل أيُّها الرَّكبُ المسافر ، إنَّكم لسارقون ، وهل هذا هو جزاء الإحسان ؟! ألم نكرمكم ونحسن ضيافتكم ؟ ونوف إليكم الكيل ؟ قالوا : بلى ، وما ذاك ؟ قالوا : فقدنا صُواع الملك ولا نتهم عليها غيركم ، فذلك قوله تعالى : ﴿ **قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ** ﴾ ، وقولهم ﴿ **مَّاذَا تَفْقِدُونَ** ﴾ إرشاد إلى مراعاة حُسْن الأدب ، وعدم إلصاق التُّهم من غير تثبتٍ فيها ، ولذا التزموا معهم الأدب في المرَّة الثانية فأجابوهم ﴿ **قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ** ﴾ أي ضاع صَاعُ الملك الذهب المرصَّع بالجواهر ، ﴿ **وَلِمَن جَاء بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ** ﴾ من الطعام كجائزةٍ له ، ﴿ **وأنا بِهِ زَعِيم** ﴾ [(٢)] كفيل وضامن .

---

(١) لعلَّ في قولهم : ﴿ **أيتها العير إنَّكم لسارقون** ﴾ من باب التورية لأنَّكم أخذتم يوسف من أبيه من قبل ، وهذا فعل السُّرَّاق .

والعير : القافلة . وهو اسم الإبل التي عليها الأحمال ، وأصل معنى قافلة أي راجعة ، أي طائفة راجعة من السَّفر ، فأُطلِقَت على الذاهبة تفاؤلاً ، والعير من عار بمعنى تردَّد ، أي جاء وذهب ، وهو اسم جمع لا واحد له ، فأُطْلِقَ على أصحابها .

والسقاية : المشربة التي كان الملك يشرب بها وهي الصُّواع ، وكان يشبه الطاس من ذهب يسقى بها الملك ، ثُمَّ جُعِلَت صاعاً يُكَالُ به لعِزَّة الطَّعام .

(٢) الزعيم : الكفيل بلسان أهل اليمن .

قال إخوة يُوسُف كالمتعجبين من هذه التهمة الشنعاء : ﴿ تَا للهِ ﴾ قَسَمٌ فيه معنى التعجُّب : لقد علمتم أيها القوم وسوف تعلمون ، أنَّا ما جئنا لنفسد في أرضكم ، وما كُنَّا سارقين ، لسنا وجوه سرقة ، فنحن أبناء أنبياء ولا يصدر منا مثل هذا الفعل القبيح ، ﴿ قَالُواْ فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴾ ما جزاء السارق في شريعتكم إن كنتم كاذبين في ادِّعاء البراءة وعثرنا عليه في حوزتكم ؟ ﴿ قَالُواْ جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ﴾ جزاء السارق الذي يوجد الصُّواع في متاعه أن يُسْتَرَقَّ ويُصْبِح مملوكاً لمن سَرَق منه ، ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ الذين يتعدُّون على حدود الله بالسرقة ، وهذا الحكم قد نُسِخَ بقطع اليد في الشريعة المحمَّديَّة .

﴿ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٍ ﴾ .

ولَمَّا بدأ يُوسُف عليه السلام بتفتيش الرَّحْل فتَّش جميع الأوعية وأخَّر وعاء أخيه ، بل تردَّد في تفتيشه ، حتَّى قال له الإخوة : لابُدَّ من أن تفتشه ، ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾ فنجحت الحيلة حيث أنَّه استبقى بنيامين لا قسراً ، وإنَّما بحكم تطبيق الشريعة التي كانت سائدة حينئذاك .

﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ ﴾ ملك مصر ، لأنَّ جزاءَ السارق عنده أن يُضْرَبَ ويُغَرَّم ضِعْفَ ما سَرَق ، إلاَّ بمشيئة الله تعالى وإذنه ، وقد دلَّت الآية على أنَّ تلك الحيلة كانت بتعليم الله وإلهامه ليوسُف ، نرفع بالعلم منازل مَن نشاء من عبادنا كما رفعنا يُوسُف

﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٍ ﴾ فوق كُلِّ عالمٍ مَنْ هو أعلَمُ منه ، حتَّى ينتهي إلى ذي العلمِ البالغِ وهو ربُّ العالمين .

﴿ قَالُواْ إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُم قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَّكَاناً وَا للهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ .

وانظر إلى اللباقة وحُسْن الذوق والأدب والحصافة التي تدلُّ على ذكاءٍ نادرٍ ، حينما ثبت ظاهرياً بأنَّ بنيامين هو السارق ، حيث وُجِدَ صُواعُ الملكِ في وعائه ، قال إخوةُ يُوسُف : ﴿ قَالُواْ إِنْ يَسْرِقْ [1] فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ مع بيان أنَّ إخوة يوسف لازالت نفوسهم تبغض يوسُف وتكرهه ، حتَّى افتأتوا عليه فرموه بالسرقة ، إلاَّ أنَّ يوسُفَ لم يجابههم بالحقيقة ، و لم يعاملهم بالمثل ، و لم يخبرهم بدسائسهم وحيلهم التي صنعوها قبل ذلك ، حيث ألقوه في البئر ، ولكنّه أخفى هذه العبارة في نفسه ، و لم يظهرها لإخوته تلطُّفاً منه حتَّى يصل إلى ما يريد أن يصل إليه ، ولكنّه

---

(1) ﴿ إن يسرق فقد سرق أخٌ له من قبل ﴾ قيل : إنَّ مِنْطَقَةً لإبراهيم عليه السلام يتوارثها أكابر ولده فورثها إسحاق ، ثُمَّ وقعت إلى ابنته وكانت أكبر أولاده ، فحضنت يُوسُفَ بعد وفاة أُمِّه وكانت لا تصبر عنه ، فلمَّا شبَّ أراد يعقوب أن ينزعه منها فعمدت إلى المِنْطَقة فحزمتها على يُوسُفَ وقالت فُقِدَتْ مِنْطَقَةُ إسحاق فوجدوها محزومةً على يُوسُفَ فقالت : إنَّه لي أفعل به ما أشاء ، فتركه يعقوب عندها حتَّى ماتت . وا لله أعلم .

﴿ إن يسرق فقد سرق أخٌ له من قبل ﴾ : أي ليس ببدع لسبق مثله من أخيه ، والعِرْقُ نزَّاع ودَسَّاس ﴿ إنْ يسرق ﴾ ومجيئهم بكلمة ﴿ إنْ ﴾ لعدم تحقُّقهم له بمجرَّد خروج السقاية من رَحْلِه ، لأنَّهم وجدوا بضاعتهم مِن قَبْل في رحَالِهم و لم يكونوا سارقين ..

قال في نفسه : ﴿ أَنْتُمْ شَرٌّ مَّكَاناً ﴾ على معنى أنّهم بسرقتهم لأخيهم يُوسُفَ من قبل ، وسوء الصنيع ، وعقوق الوالد ، والكذب ، هم شرّ الناس منزلةً ، قال ذلك في نفسه و لم يبدها لهم . ﴿ وَا للهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ بما تتقوّلون وتفترون .

﴿ قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً ﴾ استرحام واستعطاف واستجداء ، يا أيها السيد الكريم إنّ أباه شيخٌ كبيرٌ طاعِنٌ في السن لا يتحمّل ولا يقوى على فِرَاقِهِ ﴿ فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ﴾ فلسنا عنده بمنزلته من المحبّة والشفقة ، ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ لقد عوّدتنا الجميل وحُسْن الصّنيع ، وهذه قدرة واعية فهم يحسنون فَنّ الاعتذار والتملُّق :

ارْجِعْ لِعَادَتِكَ الَّتِي عَوَّدْتَنَا وَإِلاَّ فَأَرْشِدْنَا إِلى مَنْ نَذْهَبُ

ومع أنّنا قد لمسنا من إخوة يُوسُف الوقوعَ في المحظور ، والزلّةَ في المعصية ، رأيناهم وقد رَقُّوا لأبيهم عند حجز بنيامين ، فكان في عبارتهم : ﴿ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ﴾ ما يُنْبئُ عن تعاطفهم الشديد نحو أبيهم وكأنّهم في المرّة الثانية لم يقصدوا أنْ يخونوا العهد كما خانوه قبل ذلك مع يُوسُفَ ، وإنّما الظروف والدّوافع هي التي جعلتهم يعودون إلى يعقوب وليس في صحبتهم بنيامين ، وسبحان ربي ، لقد تنبأ لذلك أبوهم يعقوب بإلهامٍ إلهي حينما أخذ عليهم العهد في رده : ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ ا للهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا أَتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ا للهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ .

﴿ قَالَ مَعَاذَ ا للهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ ﴾ نعوذُ با للهِ أنْ

نأخُذَ أحداً بجرمِ غيره ، فلا تزر وازرة وِزْرَ أُخرى ﴿ إِنَّا إِذاً لَظَالِمُونَ ﴾ إنْ فعلنا ذلك وأخذنا غير السارق بجريرته .

وفي قوله : ﴿ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ ﴾ بدل من (سَرَقَ) لتحقيق الحق والاحتراز من الكَذِب .

﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيّاً ﴾ سمع أعرابي الآية فخرَّ ساجداً قيل له : أصبأت ؟ قال : لا ولكن سجدتُ لفصاحته ، ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيّاً ﴾ : لَمَّا يئسوا من إجابة طلبهم اعتزلوا جانباً يتناجون ويتشاورون ﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُواْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقاً مِّنَ اللهِ ﴾ وكان أكبرهم سِنّاً وهو (روبيل) ذكَّرَهُم بالعُهُود التي أبرموها بينهم وبين أبيهم ، فكيف ترجعون الآن ؟ وبأي وجهٍ تعودون إليه ؟ ومِن قَبْل فرَّطْتم في يُوسُفَ ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي ﴾ فلن أُفارق أرض مصر حتَّى يأذن لي أبي بالخروج منها أو يحكم الله لي بخلاصِ أخي ﴿ ارْجِعُواْ إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ ﴾ أخبِرُوه بواقع الحال وما حدث ، وقُرِئَ إن ابنك ﴿ سُرِّقَ ﴾ أي نُسِبَ إلى السرقة ، وهذه القراءة فيها ما فيها من تنزيهِ بيت النبوة عن السرقة ، وهي قراءة الكسائي ﴿ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا ﴾ بأن رأينا الصُواع اسْتُخْرِجَ من وعائه ﴿ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴾ ولم ندر حين أعطيناك الموثِق أنَّه سيسرق ، أو أنَّك تُصابُ به كما أُصِبْتَ بيوسُفَ من قَبْل ، ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴾ وهي مصر ، ﴿ وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ القافلة التي جئنا فيها ، وهم قوم من كنعان كانوا بصحبتهم في هذا السَّفر ، ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ فيما أخبرناك من أمره ، ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً ﴾ زيَّنت لكم أنفسكم أمراً

أردتموه فقرَّرتموه ، وإلاَّ فما أدْرَى المَلِك أنَّ السَّارِقَ يُؤخذ بسرقته ؟! هذا ليس في شريعة الملك ، وإنَّما شريعته أن يُضْرَب ويُغَرَّم ضعف ما سَرَق ، لكنَّكم وقد اشتهيتم الخلاص منه كما خلصتم من يُوسُفَ مِن قَبْل ، اقترحتم هذا الاقتراح أنْ يُؤْخَذَ مُقَابِلَ سَرِقَتِهْ ، ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ فصبري جميلٌ ﴿ عَسَى الله أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً ﴾ يُوسُف وبنيامين وروبيل الذي توقَّف بمصر ، ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * وَتَوَلَّى عَنْهُم ﴾ أعرض عنهم ﴿ وَقَالَ يَا أَسَفَى [1] عَلَى يُوسُفَ ﴾ أي : يا أسفي تعال ، فهذا وقت أوانك ، والأسفُ أشَدُّ الحزن والحسرة ، وإنَّما تأسَّفَ على يُوسُفَ دون أخويه لأنَّ رزأه بيوسُفَ كان قاعدةً ، ومبنىً لجميع مصيباتِهِ ، فكلَّما عرضت له مصيبةٌ ذَكَّرَتْه بمصيبةِ يُوسُفَ لأنَّها في كُلِّ زَمَانٍ لا تَزَالُ غَضَّةً طريَّة ، لم تُزَايِلْ فِكْرَهُ أبداً ، ولا زالت تُلِحُّ عليه ، على حدِّ قول الشاعرِ :

وَقَالُوا أَتَبْكِي كُلَّ قَبْرٍ رَأَيْتَهُ
لِقَبْرٍ ثَوَى بَيْنَ اللِّوَى فَالدَّكَادِكِ
فَقُلْتُ ذَرُوْنِي فَالأَسَى يَجْلِبُ الأَسَى
ذَرُوْنِي فَهَذَا كُلُّهُ قَبْرُ مَالِكِ

(١) ﴿ يا أسفى على يُوسُفَ ﴾ .
بين الأسف ويوسف جناس لطيف غير متكلّف ، وتلك بلاغة القرآن .

مسائل نحوية :

﴿ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَا للهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ كَمَا أَمِنْتُكُمْ ﴾ :

الكاف بمعنى مثل: صفة لمصدر محذوف، والتقدير: إلا ائتماناً مثل ائتماني لكم على أخيه أو على الحال منه أي: إلا ائتماناً كائتماني لكم على أخيه.

قوله تعالى : ﴿ فَا للهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ حافظاً : حال ، والأكثر في الحال أن تكون (مُنْتَقِلَة) ومعنى (مُنْتَقِلَة) ألاَّ تكون ملازمة للمتَّصِف بها نحو : (جاء الرَّجُلُ راكباً) فـ (راكباً) وَصْف منتقل لجواز انفكاكه عنه إذ قد يجيء ماشياً ، وقد تجيء الحال (غَيْرَ مُنْتَقِلَة) أي وصفاً لازماً ، نحو : (رأيتُ ا للهَ غَفُوراً رَحِيماً) .

﴿ قَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُتفرقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ ا للهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ للهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ : قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِيَّ ﴾ أصله (يَا بَنِيـيَ) فالياء الأولى جمع المذكّر السالم ، والثانية ياء المتكلم ، أُدغمت ياء المتكلّم في ياء جمع المذكّر السَّالِم فقيل : (يَا بَنِيَّ) وهو منادى منصوب ، لأنَّه مضاف إلى ياء المُتَكَلِّم .

﴿ قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ : قوله تعالى : ﴿ إِنَّ لَهُ أَباً ﴾ (أباً) اسم إنَّ و (له) خبرها ، و (شيخاً) بدل من (أباً) و (كبيراً) نعت له .

والشيخ : الذي استبانت فيه السِنُّ وظهر عليه الشيبُ ، من الخمسين إلى آخر العمر .

يقول الشاعر :

زعمتني شيخاً ولستُ بشيخٍ إنَّما الشيخُ مَن يَـدُبُّ دبيباً

ويُقَال لمن تَضَلَّع في أُمور الشريعة ، وتفقَّه في الدين : (شيخ) .

﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيّاً قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُواْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقاً منَ ا للهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ ا للهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ : قوله تعالى : ﴿ **خَلَصُواْ نَجِيّاً** ﴾ أي انفردوا متناجين ، ﴿ **نَجِيّاً** ﴾ : مصدر وقع حالاً .

قوله تعالى : ﴿ **وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ** ﴾ : (ما) هنا المصدرية ، والتقدير : ومِن قبل تفريطكم في يُوسُفَ ، و (ما) معطوف على مفعول ﴿ **أَلَمْ تَعْلَمُواْ** ﴾ وهو (أنَّ أباكم قد أخذ عليكم موثقاً) ، وتقدير الكلام : (ألم تعلموا أخذ أبيكم موثقاً عليكم وتفريطكم في يُوسُفَ مِن قبل) .

و ﴿ **الأَرْضَ** ﴾ : أرض مصر ، والألف واللام للعهد الذهني .

ما يُسْتَفَادُ من الآياتِ :

وفي الحديث : (لَم تُعْطَ أُمَّةٌ من الأمم ﴿ **إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْه رَاجِعُون** ﴾ عند المصيبة العامَّة إلاَّ أُمَّة محمَّد ﷺ . ألا ترى إلى يعقوب عليه الصلاة والسلام حين أصابه ما أصابه لم يسترجع وقال : ﴿ **يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ** [١] **مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ** ﴾ ابيضَّت لكثرة بكائه من الحزن كانت لا ترقأ له عبرة حتى محقت سواد عينيه ، وفيه دليل على جواز التأسُّف والبكاء عند التفجُّع ، ولعلَّ أمثال ذلك لا تدخل تحت التكليف ، فإنَّه قلَّ مَن يملك نفسه عند الشدائد ، ولقد بكى رسولُ الله ﷺ على ولده إبراهيم ، وقال : (**القلبُ يجزع ، والعين تدمع ، ولا نقول ما يُسْخِط الرَّب ، وإنا عليك يا إبراهيم لمحزونون**) وإنَّما المنهي عنه النياحة واللطم . ﴿ **فهو كظيم** ﴾ [٢] : ممتلئٌ غيظاً ، فكان يتجرَّعُ غيظه ، ولا يشكو إلى أحدٍ قط .

---

(١) وابيضَّت عيناه من الحزن : نَزَلَت غشاوة بيَّضتها ، وقيل : بل كناية عن العمى ، لأنَّه لازم لذهاب سواد العين ، بدليل قوله تعالى : ﴿ **فارتدَّ بصيراً** ﴾ ، ويقال : إنَّ يعقوب فقد بصره من شِدَّة حزنه على يُوسُفَ وبقي لا يُبْصِر ستّ سنين حتَّى كشف الله عنه الضُّرَّ بقميص يُوسُفَ .

(٢) ﴿ **فهو كظيم** ﴾ : من كظم غيظه إذا احترعه ، وأصله كظم البعير جرّته وهو ما يخرجه البعير من جوفه مِمَّا أكله ليلوكه ، فكأنَّه يرده إلى جوفه مرّة أُخرى من غير أن يطلع أحداً عليه ، فكانَ يعقوبُ يتجرَّع كل هذه الغصص وهو مملوء من الغيظ على أولاده ، ممسكٌ له في قلبه ، لا يُظْهِره ، فهو كظيم . وذلك هو الصبر الجميل ، صبرٌ لا شكوى فيه .

إنَّ يعقوبَ عليه السلام مكث أربعةً وعشرين سنة لا يدري أيوسف حيّ أم ميِّت حتَّى تمثَّل له ملك الموت عليه السلام فقال له : مَن أنت ؟ قال : أنا مَلَكُ -

﴿ قَالُواْ تَا للهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴾ لا تزال تذكرُ يُوسُفَ وتتفجَّعُ عليه حتَّى تكون حرضاً مريضاً مشرفاً على الهلاك ، أو تكون من الهالكين تهلك أسىً وحسرةً وتموت .

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى ا للهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ا للهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ أشكو همي الذي لا أقدر الصبر عليه إلى ا لله لا إلى أحد سواه ، فخلوني وشكايتي ، وأعلم من ا لله من صنعه ورحمته فإنَّه لا يخيب داعيه ولا يدع الملتجئ إليه ما لا تعلمون .

﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ (١) مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ ا للهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ ا للهِ (٢) إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ : التمسوا يُوسُفَ وأخيه ولا تقنطوا من فرج ا لله ورحمته ، فإنَّ المؤمن العارف لربه ، لا يقنط من رحمة ا لله في شيءٍ ، لأنَّ منشأ اليأس هو الكفر ، وعدم التصديق بالصانع وصفاته الكمالية ورحمته التي وسِعَت كُلَّ شيء .

= الموت . فقال : أنشدك بإله يعقوب هل قبضت روحَ يُوسُف ؟ قال : لا . فعند ذلك قال عليه الصلاة والسلام : ﴿ يا بَنِيَّ اذهبوا فتحسَّسوا من يُوسُفَ وأخيه ﴾ .

(١) والتَّحَسُّسُ : طلبُ الاحساس وهو أصل معناه ، أي الإدراك بالحاسَّة ، والمراد لازمه وهو التعرُّف والتفحُّص والتَّفْتِيش ، وإنَّما طلب يعقوب منهم ذلك لأنَّه أحسَّ بأنَّ عزيز مصر ليس من الفراعنة ، فتعشَّم فيه الخير لِمَا تفرَّس من ذكر إكرامه لهم .

(٢) وَرَوْحُ ا لله : الرَّوْحُ - بالفتح - أصلُ معناه النَّفْس ، ثُمَّ استعير للفَرَج ، وقُرِئَ : رُوْحُ ا للهِ - بالضم وفُسِّرَ بالرحمة ، لأنَّ الرحمةَ سَبَبُ الحياةِ كالرُّوْحِ ، وإضافتها إلى ا لله (رَوْحِ ا لله لأنَّها منه) وقيل : معنى لا تيأسوا من رَوْحِ ا لله أي من حي معه رَوْحُ ا للهِ الذي خلقه ، فإنَّ كُلَّ مَنْ بَقِيَتْ رُوْحُهُ يُرْجَى لقاؤه ، بعكسِ مَن واراه الثَّرى فليس فيه مطمع .

وكان يعقوبُ قد علم بأنَّ يوسُفَ لم يمُت لمَّا سأل عنه مَلَكَ الموت عليه السلام هل قبضت روحه ؟ فقال : لا ، ولأنَّه علم من تناهي الشدَّة أنَّ بعدها فرجاً قريباً ، على حَد قول الشاعر :

ولَرُبَّ نازلة يضيق بها الفتى ذرعاً وعند الله منها المخرج

ضاقت فلمَّا استحكمت حلقاتها فُرِجَت وكُنتُ أظنها لا تفرج

أو أنَّه علم من رؤيا يوسف أنَّه لا يموت حتى تخرّ له إخوته سجداً .

﴿ فَلَمَّا دخلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ[1] **فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ ا للهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾** : بعدما رجعوا إلى مصر للمرَّة الثالثة قالوا ليوسُفَ عليه السلام : يا أيها العزيز مسّتنا الشّدَّةُ والقحط ، وجئنا ببضاعةٍ مزجاةٍ رديئةٍ قليلةٍ غير صالحة لأنْ تكون ثمناً ، فالعفو والمسامحة ، فأوفِ لنا الكيل أتمَّه لنا ، وتصدَّق علينا ، إنَّ ا لله يجزي المتصدقين أحسن الجزاء ، مقابل صنيعهم .

وهل حرمةُ الصَّدَقَةِ تَعُمُّ الأنبياءَ ؟ أم هي خاصَّة بنبينا محمَّدٍ ﷺ ؟ كلام .. فمَن قال بأنَّها تختّصُّ بنبينا محمَّدٍ ﷺ فلا إشكال في الآية ، ومَن قال بأنَّها عامَّةٌ في الأنبياء على القول بأنَّ إخوةَ يُوسُفَ هم الأسباط وأنَّهم أنبياء ، فيكون المراد وتصَدَّق علينا أي برد أخينا بنيامين ، ويكون معنى الصَّدَقة هنا التفضُّل ، وفي الحديث إنَّ النَّبيَّ ﷺ قال في شأن قصر صلاة المسافر : **(إنَّ هذه صَدَقَةٌ تصدَّقَ ا لله بها عليكم فاقبلوا صَدَقته)** .

---

(1) بضاعة مزجاة : قيل : كانت دراهم زيوفاً ترد وتدفع ، من أزجيته إذا دفعته .

﴿ **قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَّا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ** ﴾ ولمّا بلغ الأمرُ غايتــه في الانكسار ، رأى يُوسُفُ أنَّ وقت الإفصاح عن نفسه قد حان ، وقد أخذته رقَّةٌ عليهم ، وأدركته شفقةٌ ورأفةٌ ، قال : هل تذكرون ما فعلتم بيُوسُفَ وأخيه من أمورٍ منكرة ؟ وكأنَّه يقول : ما أعظم الخطب وأفدحه ، كان ذلك بسببِ الجهلِ وغيابِ الحلمِ ..

ويُوسُفُ عليه السلام يحثُّهم ويلَقِّنُهُم الجوابَ كأنــَّه يقول : هل علمتم قُبْحَ ما صنعتم بعدما فعلتموه جاهلين به ؟ وكُلُّ ذلك مِن بابِ الحَثِّ على التوبةِ ، وتخفيفِ وقع الخَطْبِ عليهم ، وإزالةِ الحَرَجِ عنهم ، فهم في موقفٍ لا يُحْسَدونَ عليه ، مِنَ الحيرةِ والذِّلَّةِ والمسكنةِ والانكسارِ .

وقيل : بل أعطوه كتاباً مِن يعقوبَ عليه الصَّلاة والسَّلام ونصُّه : " مِن يعقوبَ إسرائيلَ اللهِ بن إسحاق ذبيح اللهِ بن إبراهيم خليل اللهِ ، إلى عزيزِ مصرَ . أمَّا بعد : فإنَّا أهلُ بيتٍ موَكَّلٌ بنا البلاء ، أمَّا جدّي فشُدَّت يَداهُ ورِجْلاهُ ورُمِيَ به في النَّارِ ليُحْرَقَ فنجَّاهُ الله ، وجُعِلَتْ النَّارُ عليه برداً وسلاماً . وأمَّا أبي فوُضِعَ السّكِّينُ على قفاه ليُقْتَلَ ففداهُ الله . وأمَّا أنا فكان لي ابنٌ وكان أحبَّ أولادي إليَّ فذهبَ بهِ إخْوَتُهُ إلى البرية ثُمَّ أتوني بقميصهِ مُلَطَّخاً بالدَّمِ وقالوا : قد أكله الذئبُ ، فذهبت عيناي من بُكائي عليه ، ثُمَّ كان لي ابنٌ وكان أخاهُ مِنْ أُمّه ، وكنتُ أتسلَّى به فذهبوا به ثُمَّ رجعوا وقالوا : إنَّه سَرَقَ وأنَّكَ حبستَه لذلك ، وإنَّا أهلُ بيتٍ لا نسرِقُ ولا نَلِدُ سَارِقاً ،

فـإن رددتـه عليَّ وإلاَّ دعـوتُ عليـكَ دعـوةً تُـدْرِكُ السَّـابعَ مِـنْ وَلَـدِك . والسلام " (١) .

---

(١) الكشاف للزمخشري ، ٣٤١/٢

ويعقوبُ عليه السلام هو إسرائيلُ ، وإنّما سُمِّي إسرائيلُ لأنَّه تصارعَ مع رجلٍ فقالوا يغلبُ (إسـرائيلُ) أي يغلبُ الـذي مـع ا لله ، فغلـبَ يعقـوبُ ، فقـالوا عنـه (إسرائيلُ) . فهي بالعبرية بمعني : (يغلب الذي مع ا لله) .

وأمَّا قوله في الكتاب : (ابن إسحاق ذبيح ا لله) فهذه زلَّةٌ وخطأ . والحـق أنَّ الذبيحَ هو (إسماعيلُ) عليه السلام ﴿ **إني أرى في المنام أنّي أذبحك فانظر ماذا ترى * قال يا أبـت افعـل مـا تؤمـر ستجدني إن شاء ا لله مـن الصَّـابرين** ﴾ . والنَّبيُّ ﷺ يقول : (**أنا ابن الذَّبيحين**) (عبد ا لله ، وإسماعيل) وهذا هو الصـواب ، وعليـه فـإنَّ الكلام غير مستقيم ، وهو من الإسرائيليات ، لذا وجب التنبيه .

وتحدَّث عن ذلك الشيخ محمَّد أبو شهبة في كتابه (الإسرائيليات والموضوعـات في كُتُبِ التفسير) فقال : والحق أنَّ المرويات في أنَّ الذَّبيح إسحاق هي من إسرائيليات أهل الكتاب ، وقد نقلها مَن أسلم منهـم ككعـب الأحبـار ، وحملهـا بعـض الصحابـة والتابعين تحسيناً للظَّنِّ بهم ، وجاء بعدهم العلماء فاغْتَرُّوا بهـا ، وذهبـوا إلى أنَّ الذّبيـحَ إسحاق . وحقيقة هذه المرويات أنَّها مِن وَضْعِ أهل الكتاب لعداوتهم المتأصِّلة من قديم الزمـان للنَّبيِّ الأُمِّي العربي ، فقـد أرادوا أن لا يكـون لإسمـاعيل الجـدّ الأعلى للنَّبـيِّ وللعربِ فضل أنَّه الذَّبيح حتَّى لا ينجـرَّ ذلـك إلى النَّبـيِّ والجنسِ العربي ، وغفلـوا في توراتهـم المحرَّفـة عـن كلمـةٍ كشفَت تزويرهـم ، ففـي الإصحـاح الثـاني والعشـرين ، فقرة (٢) : (فقال الربُّ : خُذ ابنك وحيدك الذي تحبـه إسـحاق ، واذهـب إلى أرض المريا وأصعده هناك مِحْرَقَـةً على أحد الجبال الذي أقـول لـك ...) وإسـحاق لم يكـن وحيده لأنَّه وُلِدَ ولإسماعيلَ نحو أربع عشرة سنة .

وكيف يسوغ أن يُقَالَ الذَّبيحُ إسحاق ؟ وا لله تعـالى قـد بشَّـر أُمَّ إسـحاق بـه وبابنـه يعقوب ، قـال تعـالى : ﴿ **فبشَّـرناها بإسـحاق ومِـنْ وراءِ إسـحاقَ يعقـوب** ﴾ فمحالٌ أن يبشِّرها بأنْ يكون لها ولد وللولد ولد ، ثُمَّ يأمُرُ بذبحه .

﴿ **قَالُواْ أَإِنَّكَ لأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ ا للهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِر فَإِنَّ ا للهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ عرفوه بعد أنْ تحقّقوا من رؤيته ، لأنَّه في هذه المرَّة دنا منهم ، وكلّمهم بلسانهم العبري ، وقيل : رفعَ التّاجَ عن رأسه فرأوا في قرنه – أي جانب رأسه – علامة تشبه الشامَة البيضاء ، كانت في جدَّتِه ساره وأبيه يعقوب [1] .

﴿ **قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي** ﴾ الشقيق بنيامين ، وإنَّما ذكره معه والسؤال لم يشمله ، تنويهاً بشأنه وتفخيماً ، ثُمَّ ليعمّه القول : ﴿ **قَدْ مَنَّ ا للهُ عَلَيْنَا** ﴾ بالسلامة والكرامة ﴿ **إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِر** ﴾ على الطاعات

= وفي سورة الصَّافَّات ذكر الحقُّ قِصَّةَ إبراهيم وابنه الذَّبيح إسماعيل ، ثُمَّ قال : ﴿ **وبشّرناها بإسحاقَ نبيّاً مِنَ الصَّالِحين** ﴾ ، وأيضاً فلا ريب أنَّ الذَّبيحَ كانَ بمكَّة ولذلك جُعِلَت القرابين يوم النَّحر بها ، كما جُعِلَ السَّعْيُ بين الصَّفا والمروة ، ورَمْي الجِمارِ ، تذكيراً لشأن إسماعيل وأُمّه ، وإقامته لذكر ا لله ، ومعلومٌ أنَّ إسماعيل وأُمَّه هما اللذان كانا بمكّة دونَ إسحاق وأُمّه .

والحديث : أنَّ أعرابياً أتى النَّبيَّ ﷺ فقال : يا رسول ا لله ، خلفت الكلأ يابساً ، والمال عابساً – مِن شِدَّة الظمأ – هلك العيال ، وضاع المال ، فعُدْ عليَّ مِمَّا أفاء ا لله تعالى عليك يا ابن الذَّبيحين ، فتبسَّم رسولُ ا للهِ ﷺ ولم يُنكِر عليه .

وقد جاز هذا الدَسّ اليهودي على بعض كِبار العلماء ، كابن جرير ، والقاضي عياض ، والسهيلي ، فذهبوا إلى أنَّ الذَّبيحَ إسحاق ، وتحيَّر بعضهم في الروايات فتوقّف كالسيوطي ، وحاول بَعْضُهُم الجمعَ بينهما فزعم أنَّ الذَّبْحَ وقع مرَّتين . والمسألة واضحة ، وا لله الهادي إلى الحقِّ وإلى سواء السبيل .

الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير ، للدكتور محمَّد أبو شهبة ، مكتبة السُنَّة بمصر ، الطبعة الرابعة ص ٢٥٢-٢٦٠

(١) الشهاب على البيضاوي ٥/٢٠٤

واجتناب المعصيات ، وفي هذا تعريضٌ بإخوتــه وكأنــّه يقـول لهـم : مـنَّ ا لله علينا لأنّنا اتّقيناه وابتعدنا عـن معاصيـه ، وهكـذا الشـأن فيمَـن يتّـقِ ويَصْبِر ﴿ فَإِنَّ ا للهَ لاَ يُضِيـعُ أَجْـرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ وهـم الذيـن جمعـوا بـين التقـوى [1] والصبر ، وأكْرِم بها من مَنْزِلة .

﴿ قَالُواْ تَا للهِ لَقَدْ آثَرَكَ ا للهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ اعتراف بالذنب وإقرار بالخطيئة ﴿ تَـا للهِ ﴾ قسـم بـأنَّ الحـقَّ قـد اختـارك وآثـرك – والإيثـار التّفضيل – وفضّلك علينـا بكمـال السـيرة وحسـن السـريرة والصـبر والتقـوى والملك ، على النقيض منـا الذيـن لم نسـتطع كبـح جمـاح شـهواتنا في تفضيـل أبينا لك و لم نحسن سيرتنا معك ، حتّى كـان التفضيـل الأعظـم وهـو تفضيـل رب العزَّة والجلال لك ، والحال إنّا كُنّا مذنبين ، وهذا اعـترافٌ منّـا بذلـك ، فالبقاء للأصلح ، وللباطل جولة ساعـة ، وللحق جـولات إلى قيـام السـاعـة ، والعاقبة للتقوى ، فاهنأ بما حباك بـه ربك من تفضيل ، ثُمَّ ما حباك بــه أبـوك من حبّ وتفضيل فأنت بهما جدير .

وهنا يظهر يُوسُفُ في تسامحه ، وهو ما يُسَمَّى بالعفوِ عندَ المقدرة ، فقد كان بمكنته أنْ يوقع بهم وهم الذين أساءوا إليه ، ولكـنَّ الصّدّيـقَ لا يفعلهـا ، لأنَّ كرم عنصره ، وشرف نجاره ، يأبى عليه أن ينْزَلِقَ هذا الْمُنْزَلَق ، فضلاً عـن أنَّه قد أصـدر قـراره بـالعفو العـامّ عنهـم ، بـدلاً مـن أن يثـأر منهـم ويطلُـب

---

[1] البيضاوي ٥/٢٠٤

والتّقوى : أن تجعـل بينـك وبـين معـاصي ا لله وقايـة ، بحيـث لا يـراك حيـث يكـره ، ولا يفتقدك حيث يحب ﴿ **والعاقبة للتّقوى** ﴾ [طه : ١٣٢] ﴿ **إنَّ المتّقِينَ في جنّاتٍ ونهر * في مقعد صِدْقٍ عند مليكٍ مقتدر** ﴾ [القمر : ٥٤-٥٥] .

مجازاتهم ، فقال : ﴿ **قَالَ لاَ تَثْرِيبَ**[(١)] **عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ ا لله لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** ﴾ لا عتب ولا تقريع عليكم اليوم ، فضلاً عن سائر الأيَّام ، وإنَّما هو العفو والصَّفْحُ والغُفْرانُ ، ﴿ **يَغْفِرُ ا لله لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** ﴾ يغفر الصَّغائر والكبائر ، ويتفضَّل على التائب ، والحقُّ سبحانه بكرمه أولى بالعفو والرحمة والمغفرة ، ورَحْمَتُهُ وَسِعَتْ كُلَّ شيء .

﴿ **اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾ : القميص الذي كان لابساً له بدليل قول يعقوب عليه السلام : ﴿ **إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ** ﴾ . ﴿ **فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي** ﴾ يعودُ بصيراً ، أراد بذلك تبشيره بحياته ، وإدخال السرور عليه ، بعد ذلك الحزن الطويل ﴿ **وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾ بنسائكم وذراريكم وكُلِّ مَن يمُتّ إلى يعقوبَ بصلة .

---

(١) **لا تثريب عليكم اليوم** : الثرب هو الشحم الذي يغشى الكرش ، وبإزالته تبدو الكرش جلية ، وهي موضع القاذورات ، فاسْتُعِير للّوم ، لأنَّه باللَّوْمِ تظهر العيوب ، فالجامع بينهما طريان النقص بعد الكمال . واسْتُعِير الثرب والتثريب لتمزيق العِرْض وإذهاب ماء الوجه ، الذي هو إزالة الخير والوجاهة . فكأنَّ يُوسُفَ الصِّدِّيق يقول لإخوته : لا تثريب ولا معاتبة ولا مضايقة ولا إحراج يصلكُم مِنِّي ، بل لن تسمعوا إلاَّ ما يسرُّكم ..

ومِن كرم يُوسُف عليه السَّلام أنَّهم لَمَّا عرفوه أرسلوا إليه وقالوا : إنَّك تدعونا بالبكرة والعشي إلى الطَّعام ، ونحن نستحي منك لِمَا فرط منَّا فيك ، فقال : إنَّ أهل مصر كانوا ينظرون بالعين الأولى ويقولون : سبحان مَن بلَّغ عبداً بِيعَ بعشرين درهماً ما بلغ ، ولقد شرفت بكم وعظمت في عيونهم ، حيث علموا أنَّكم إخوتي ، وأنِّي مِنْ حفدة إبراهيم عليه السَّلام ؛ يلتمس العذر لهم ويحاول أن يشغلهم عن تذكُّرِ ما سَلَفَ في حقِّه . ا لله أكبر ، نفسٌ كبيرةٌ . البيضاوي ٥/٢٠٥

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴾ [(١)] : ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ ﴾ خرجت منطلقة من مصر إلى الشَّام ، قال يعقوب لِمَن حضرَ من قرابته : إنِّي لأشُمُّ رائحة يوسفَ ، قال ابن عباس : هاجت ريح فحملت ريح قميص يُوسُف وبينهما مسيرة ثمان ليال ، ﴿ لَوْلاَ أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴾ تنسبوني إلى " الخَرَفِ " وهو ذهاب العقل ، وفقدان الشعور ، وجواب لولا محذوف تقديره (لأخبرتكم أنَّه حَيٌّ) ، ﴿ قَالُواْ تَا اللهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ ﴾ قال الحاضرون من حفدته : إنَّك لفي ذهابك عن الصواب القديم ، فلإفراطك في حُبِ يُوسُفَ والإكثار من ذكره ، وتوقُّعِ لقائه لازلت تهتفُ بذكره ، وإنَّما قالوا ذلك لِظَنِّهم بأنَّ يُوسُفَ قد مات .

﴿ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ : فلمَّا أن جاء البشير ، وهو يهوذا ، رُوِيَ أنَّه قال : كما أحزنته بحمل قميصه الملطَّخ بالدَّم إليه ، فأُفرحه بحمل هذا إليه ﴿ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ ﴾ طَرَحَ القميصَ على وجه يعقوب عليه السلام فانتعش بذلك حتَّى سرت حرارة إلى قلبه فأوصلت نوره إلى الدماغ وأدَّاه إلى البصر فأبصر ، قال : ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ ﴾ من حياة يُوسُفَ

---

(١) والفَنَدُ : ضعف الرأي والعقل ، يحدث من الهَرَم وكِبَرِ السن ، وفَنَدَهُ نسبه إلى الفند ، وهو الحَجَر ، كأنَّه جعله حجراً لِقِلَّة فهمه ، على حد قول الشاعر :

إذا أنْتَ لَمْ تَعْشَق ولَمْ تَدْرِ مَا الهَوَى فَكُنْ حَجَراً مِنْ يَابِسِ الصَّخْرِ جَلْمَدا

ثُمَّ أتُسِعَ فيه فقيل : فَنَّدَهُ إذا ضَعَّفَ رأيه ولامه على ما فعله ، ولذا لم يُقَلْ للمرأة مُفَنِّدَة ، لأنَّها لا رأي لها حتَّى تُضَعَّفْ ، ولأنَّ نقصان عقلها ورأيها أمرٌ ذاتي جِبِلِّي ، فهُنَّ ناقِصاتُ عقل ودين ، ولم تكن في شَبِيْبَتِهَا ذات رأي فتفنَّد في كبرها .

الشهاب ٥/٢٠٦

وإنزال الفرج بعد الشدّة وعدم اليأس من رَوْحِ الله ﴿ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ ، وفي هذا معجزةٌ ليعقوبَ عليه السلام ، لأنَّ قُوَّةَ البدن لا تفيدُ قُوَّةَ البصرِ [١] .

﴿ قَالُواْ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ * قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ ومِن حَقّ المُعْتَرِفِ بذَنْبه أنْ يُصْفَحَ عنه ويُسْئَل له المغفرة ، وأخَّر يعقوبُ الاستغفارَ إلى السَّحَرِ أو إلى ليلةِ الجمعة ، تحرّياً لوقت الإجابة ، فروحه تفيضُ بالخير لهم ، ثُمَّ ليستحِلَّ من يوسُفَ فعلتهم ضدّه ، ويعلم أنَّه عفا عنهم ، فإنَّ عفو المظلوم شرط المغفرة ، ويؤيده ما رُوِيَ أنَّهُ استقبل القبلة قائماً يدعو ، وقام يُوسُفُ خلفه يُؤَمّنُ ، وقاموا خلفهما أذِلَّة خاشعين ، حتّى نَزَلَ جبريلُ عليه السلام ، وقال : إنَّ الله قد أجاب دعوتك في ولدك ، وعقد مواثيقهم بعدك على النبوة ، وهو إنْ صَحَّ فدليل على نبوتهم ، وأنَّ ما صدر عنهم كان قبل استنبائهم . والله أعلم [٢] .

﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ ﴾ : ضمَّ أبويه إلى صدره [٣] وعانقهما عناقاً حارّاً وقال لهما ولأهليهم أجمعين : ﴿ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللهُ ﴾ تيمُّناً وتبرُّكاً ﴿ آمِنِينَ ﴾ مِن كُل مكروه ، وكان في استقبالهم مَلِكُ مِصْرَ ، وكان دخولهم

---

[١] الشهاب ٥/٢٠٦

[٢] الشهاب ٥/٢٠٦

[٣] رفع أبويه على العرش : نَزَّلَ خالته منزلة أُمه ، كما يُنَزَّلُ العمُّ منزلةَ الأبِ ، وقيل : أنَّه لمّا تزوَّجها يعقوب بعد أُمّهِ صارت رابَّة له فنزلت منزلة الأُم لكونها مثلها في زوجية الأب وقيامها مقامها ، والرابَّةُ امرأةُ الأبِ غَيْرُ الأمِ ، وأُمُّهُ (راحيل) .
الشهاب ٥/٢٠٧

في يوم عاشوراء ، وكان أولاده الذين دخلوا معه مصر اثنين وسبعين رجلاً وامرأة [١] .

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّداً وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّه هُوَ الْعَلِيمُ الحَكِيمُ ﴾ : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ : سرير الملك ، وهذا في الدُّخول الثاني ، لأنَّ الأوَّل كان بخارج البلد ، ﴿ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّداً ﴾ فعلها يعقوب ، وتبعه إخوته ، وهذا جائزٌ في شرعهم منسوخٌ في شريعتنا ، إذ السجود لا يكون إلاَّ لله ، ولا يجوز لغيره ، وكان هذا تحيَّة تجلة وإكرام ، وكان الأوْلَى أن يسجد يُوسُفُ لأبيه يعقوب ، ولكنَّ الحكمة الإلهية اقتضت هذا لتعبر الرؤيا ، وليتم الرَّبط بين هذا السُّجُود والرؤيا التي رآها يُوسُفُ في بداية السورة ، كما اقتضت الحكمة من قبل أنْ يطلب يُوسُفُ بنيامينَ بدلاً مِن أبيه ، وهُنا انتهزها يُوسُفُ فرصةً ليقول : ﴿ يَا أَبَتِ

---

(١) دخل مع يعقوب عليه السلام مصر اثنان وسبعون رجلاً وامرأة ، وحين خرجت بنو إسرائيل مع موسى عليه السلام فراراً من بطش فرعون كان عددهم ستمائة ألف وخمسمائة وبضعة وسبعين رجلاً ، سوى الذرية والهرمى . الشهاب ٥/٢٠٧

رُوِيَ أنَّ يُوسُفَ طاف بأبيه عليهما الصلاة والسلام في خزائنه ، فلمَّا أدخله خزَانَةَ القراطيسِ قال : يا بُنَيَّ ما أعقَّك - يعني ما أعظم عقوقك - عندك هذه القراطيس ، وما كتبت إليَّ على ثمان مراحل . قال : أمرني جبريل عليه السَّلام . قال : أو ما تسأله ؟ قال : أنت أبسط مني إليه فاسأله ، أي أدلّ عليه من التبسُّط في الملاقاة ، فقال جبريل عليه السلام : الله أمرني بذلك لقولك ﴿ **وأخاف أن يأكله الذئب** ﴾ فهلاَّ خفتني .. والله أعلم .

﴿ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ ﴾ ربطَ بَيْنَ الرؤيا المنامية التي رآها في أوَّل السورة ﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ وبين صنيع أبيه وإخوته عندما دخلوا عليه ﴿ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّداً ﴾ [١] .

﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ ﴾ ولم يقل : من الجُبّ لأنَّه لا يريد أن يقرعهم أو يعاتبهم ، والمقام يقتضي الصَّفْح وعدم ذكر الأسى ولأنَّ الإحسان إنَّما تمَّ بعد خروجه من السجن ، لوصوله إلى الملك ، وخُلُوصه من الرّق والتُّهمة الباطلة . ﴿ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ [٢] مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ [٣] الشَّيْطَانُ بَيْنِي وبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾ أفسد ما بيني وبين إخوتي بالإغواء ، ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّه هُوَ الْعَلِيمُ الحَكِيمُ ﴾ لطيف التدبير ، يحقّق مشيئته بلطفٍ ودقَّةٍ خفية لا يحسها الناس ولا يشعرون بها ، ﴿ إنَّه هُوَ الْعَلِيمُ ﴾ بخلقه ﴿ الحَكِيمُ ﴾ في صنعه سبحانه وتعالى ، والذي إذا أراد شيئاً سهَّل أسبابه بلطفه ومنّته .

---

(١) قال المفسِّرون : إنَّ يعقوب عليه السلام أقام مع يُوسُفَ في مصر أربعاً وعشرين سنة ، ثُمَّ مات ، وكان قد أوصى أن يُدفن بأرض الشام بفلسطين في الخليل إلى جنب أبيه إسحاق ، فمضى يُوسُفُ بنفسه ودفنه ثَمَّة ، ثُمَّ عاد إلى مصر وعاش بعد أبيه ثلاثاً وعشرين سنة ، فلمَّا تَمَّ أمره وعلم أنَّه لا يدوم ، تاقت نفسه إلى الملك الدائم ، والخلود الأبدي السرمدي ، واشتاق إلى لقاء الله والرَّفيق الأعلى ، وإلى آبائه الصالحين إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، فقال : ﴿ **رب قد آتيتني من الملك** ... ﴾ الآية .

(٢) وجاء بكم من البدو : سُمِّيت البادية بذلك ، لأنَّ ما فيها يبدو للناظر لعدم ما يواريه ، وقيل : إنَّ يعقوب تحوَّل إلى البادية بعد النبوة ، لأنَّ الله لم يبعث نبياً من البادية ، وسيدُ الأولياءِ والأنبياءِ من مكَّةَ وهي حاضرة العرب آنذاك ولا تزال ..

(٣) النَّزْغ : مِن فِعْل الشيطان ، وهو الدخول للإفساد .

﴿ رَب قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنْتَ وَلِيي فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ : ﴿ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ ﴾ ملك مصر ﴿ وَعَلَّمْتَنِي ﴾ بعض تأويل الرؤى والكتب ، و(مِنْ) هنا تبعيضية ، ﴿ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ مبدعهما على غير مثالٍ سابقٍ ﴿ أَنْتَ ﴾ ناصري في الدنيا والآخرة ، دعا مولاه بأن تدوم نعمه عليه باقي عمره حتّى إذا حان أجله قبضه على الإسلام ، وألحقه بالصالحين .

عاش يُوسُفُ بمصر بعد وفاة يعقوب ثلاثاً وعشرين سنة ، ثُمَّ تاقت نفسه إلى المُلْكِ المخلّد ، فتوفّاه الله طيِّباً طاهراً ، فتخاصم أهلُ مِصْرَ في مدفنه حتّى همُّوا بالقتال ، فرأوا أن يجعلوه في صندوق من مرمر ويدفنوه في النيل ، ثُمَّ نقله موسى عليه السلام إلى مدفن آبائه ببيت المقدس بالخليل بعد أربعمائة سنة ، أخرجه من صندوق المرمر [1] وحمله في تابوت من خشب ليسهل حمله ، وكان عُمْرُ يُوسُف حين تُوُفِّيَ مائةً وعشرين سنة ، وقد وُلِدَ له : أفرائيم ، وميشأ - وهو جَدُّ يوشعَ بن نون - ، ورحمةَ امرأة أيوب عليه السَّلام .

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وهُمْ يَمْكُرُونَ * وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ * وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ : بعد انتهاء أحداث قِصَّةِ يُوسُفَ الصّدّيقِ عليه السلام ، يأتي التّعقيبُ بإقامة البرهان على صِحَّةِ نبوَّةِ سيّدنا محمَّدٍ بن عبد الله ﷺ ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ ﴾ ما أخبرناك به

---

(١) الشهاب ٥/٢٠٩

يا محمَّد من أنباء الغيب التي لم تكن تعلمها قبل الوحي ، وما كنت حاضراً مع إخوةِ يُوسُفَ وهم يُبيِّتُونَ المكرَ بهِ ، لم تقف يا محمَّدُ على هذا إلاَّ عن طريقِ الوحي ، وفي هذا أكبرُ بلاغٍ ﴿ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ ولكِن يا محمَّد تسليةً وتثبيتاً لقلب النَّبي ﷺ ﴿ مَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ ﴾ على هدايتهم ﴿ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ لميلهم إلى الكُفْرِ والهوى ، وما تطلب على هذا الخير والنُّصْح أُجرة تثقلهم بها حتَّى يُعْرِضُوا ، وإنَّما خَيْرٌ وَعِظَةٌ لو كان لهم عقلٌ لأقبلوا عليه و لم يُعْرِضُوا .

﴿ وَكَأَين منْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ * وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِا للهِ إلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ * أَفَأَمِنُواْ أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِن عَذَابِ ا للهِ أَوْ تَأْتِيَهُم السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ * قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُواْ إِلَى ا للهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ ا للهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ : كم من الآيات الدَّالَّة على قدرةِ ا للهِ وبديعِ صُنْعِهِ ﴿ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا ﴾ ليلاً ونهاراً وهم لا يفكِّرون فيها ولا يعتبرون ، فلا تتعجَّب مِن إعراضهم عنك يا محمَّد ، فإعراضهم عن هذه الآيات العظيمة : سَمَاءٌ ذَاتُ أَبْرَاجٍ ، وَأَرْضٌ ذَاتُ فِجَاجٍ ، أدعى للتعجُّبِ والاستغرابِ من إحجامهم عنكَ ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ ﴾ بوجود ا لله وخالقيته ﴿ إلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ معه سواه مِن صَنَم ووَثَن ، فهم يقرُّون بأنَّ ا لله هو الخالقُ الرَّازقُ ، ويعبدون معه الأصنام ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إلاَّ لِيُقَرِبُونَا إِلَى ا للهِ زُلْفَى ﴾ ، قال ابن عباس : ومِن ذلك قولهم في تلبيتهم : " لبيك لا شريك لك ، إلاَّ شريكاً هو لك تملكه ، وما ملك " .

﴿ أَفَأَمِنُواْ أَنْ تَأْتِيَهُمْ ﴾ عُقُوبَةٌ ﴿ مِن عَـذَابِ ا للهِ ﴾ تشـملهم وتحيـط بهم وتتغشّاهم ﴿ أَوْ تَأْتِيَهُم السَّاعَةُ بَغْتَـةً ﴾ مفاجـأة ﴿ وَهُـمْ ﴾ لم يسـتعدوا لها بتوبـةٍ ورجـوعٍ إلى ا لله . والاسـتفهام هنـا اسـتفهام إنكـاري وفيـه معنـى التوبيخ ، ﴿ قُلْ هَـذِهِ سَـبِيلِي ﴾ طريقـي ومنهجـي ﴿ أَدْعُـواْ إِلَـى ا للهِ ﴾ إلى معرفته بصفـاتِ كمالـه ونُعُـوتِ جلالـه ، ومِـن جملتهـا التوحيـد ، والبعـث ، والجـزاء ، ﴿ عَلَـى بَصِـيرَةٍ ﴾ علـى نـورٍ لا عمـاوة فيـه ، فـالطريق واضـح ﴿ وَسُبْحَانَ ا للهِ ﴾ تنزيهاً للواحد الأحد الفرد الصمد من الشريك والولد .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ مِن أَهْـلِ الْقُـرَى أَفَلَـمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِـرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَواْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ * حَتَّـى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُـلُ وَظَنُّـواْ أَنَّهُـمْ قَـدْ كُذِّبُواْ جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِيَ مَن نَّشَاءُ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَـوْمِ الْمُجْرِمِـينَ * لَقَـدْ كَـانَ فِي قَصَصِهِـمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَـابِ مَـا كَـانَ حَدِيثـاً يُفْـتَرَى وَلَكِـنْ تَصْدِيـقَ الَّـذِي بَيْـنَ يَدَيْـهِ وَتَفْصِيـلَ كُـل شَـيْءٍ وَهُـدىً وَرَحْمَـةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً ﴾ من البشر لا ملائكـة من السماء ، وفي هذا رد على الكفـرة مـن قريـش ، وتذكـير لهـم بمقالـة عـاد وثمـود مـن قبلهـم ، قـال تعـالى : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُـواْ فَقُـلْ أَنْذَرْتُكُـمْ صَاعِقَـةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ * إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْـنِ أَيْدِيهِـمْ وَمِـنْ خَلْفِهِـمْ أَلاَّ تَعْبُـدُواْ إِلاَّ ا للهَ قَـالُواْ لَـوْ شَـاءَ رَبُّنَـا لأَنْـزَلَ مَلاَئِكَـةً فَإِنَّـا بِمَـا أُرْسِـلْتُمْ بِـهِ كَـافِرُونَ ﴾ [فصّلت : ١٣-١٤] ، كمـا قـال تعـالى في سـورة الأنعـام : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ [الآيـة : ٩] فلم يبعث ا لله الأنبياء إلاَّ رجالاً من جنس قومهم ..

وفيه أيضاً نفي استنباء النساء [1] ، كما قال تعالى في سورة النّحل : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الآية : ٤٣] . ﴿ نُّوحِي إِلَيْهِم مِن أَهْلِ القُرَى ﴾ الحواضر ، لأنَّ أهلها أحلمُ وأعلمُ مِن أهلِ البدو أهلِ الفظاظةِ والقسوةِ ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ مِمَّن آذوا رُسُلهم وكذّبوا بآياتِ ربهم ، والدارِ الآخرة ، فيحذروا مغبة تكذيبك ومخالفتك ، والاستفهام للتوبيخ ، ﴿ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَواْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ هي خيرٌ للمؤمنين المتقين من هذه الحُطَام الفانِيَةِ ، لأنّها الأبقى ، قال تعالى : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى * إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ [الأعلى : ١٦-١٩] .

---

[1] وإنّما انتفى استنباء النساء لأنّهنَّ ناقصات عقل ودين ، ولا يستطعن تحمُّل المسئولية المناطة بالرحل ، والذهاب والإياب ، والبروز للرجال ، وقد تنبأت قديماً سجاح بنت المنذر التميمية ، وتزوَّجها مسيلمةُ الكذّاب وجعل صداقها إسقاط صلاة الظهر والعصر ، وله معها أخبارٌ عجيبة تثير الضَّحِك ، ولقد أسلمت بعد ذلكَ وحَسُنَ إِسْلاَمُهَا . قال الشاعر :

أضحت نبيَّتُنا أُنثى نَطُوفُ بها ولَم تزل أنبياءُ الله ذُكْراناً

قال الحسن : لم يبعث الله نبيّاً قطّ من أهل البادية ، ولا مِنَ النساء ، ولا مِنَ الجنّ .

القرطبي : ٢٧٤/٩

وأمَّا قوله : ﴿ وجاء بكم من البدو ﴾ فهم ليسوا من أهله ، وإنّما كانوا يخرجون إليه بمواشيهم ، وكان مجيئهم إذ ذاك منه . الشهاب ٢١١/٥

﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُواْ [(١)] جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِيَ مَن نَّشَاءُ ولاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ * لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ : ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ ﴾ من قومهم أن يصدقوهم ، وظنَّ المُرْسَلُ إليهم أنَّ الرُّسُلَ قد كذَّبوهم فيما ادَّعوه من النبوة ، وفيما وَعَدُوا بهِ مَن لَمْ يُؤْمِن مِنَ العِقابِ ، أتاهم نصْرُنا عند اشتداد الكرب ، في تلك اللَّحظة يجيء النصرُ من عند ا لله ، فنُجيَ الرُّسُل ومَنْ آمنَ بهم دون الكافرين ، ﴿ ولاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ إذا نزل بهم ، فإنَّ ا لله يُمْلِي للظَّالِمِ حتَّى إذا أخذه لم يُفْلِتْه .

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ لقد كان في قِصَّةِ يُوسُفَ مع إخوته ﴿ عِبْرَةٌ ﴾ وعِظَةٌ لذوي ﴿ الأَلْبَابِ ﴾ واللُّبُّ في كُلِّ شيءٍ خَالِصُه ، فاعتبر خلوص العقل من الأوهام " لُبٌّ " ، فقال

---

(١) ولا يُقَال : بأنَّ المقصودَ أنَّ الرُّسُلَ كذَّبَتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ حِينَ حَدَّثَتْهُمْ أنَّهم ينصرون ، أو أنَّ مُدَّة التكذيب والعداوة من الكُفَّار ، وانتظار النَّصر من ا لله وتأميله قد تطاولت حتَّى استشعروا القنوط واليأس ، وتوهَّموا أنْ لا نصر لهم في الدُّنيا ، فجاءهم نصرنا ، ولا بمعنى أنَّ الرُّسُلَ ضَعُفُوا وَسَاءَ ظَنُّهُمْ ، لأنَّ ذلك لا يليق بمقام الأنبياءِ عليهم السلام .

ولا يجوز أن يُقَالَ : خطر ببالهم ممَّا يهجس في القلب من شبه الوسوسة وحديثِ النَّفْس مِمَّا عليه البشرية ، فإنَّ هذا مِنَ الشيطان وهم معصومون منه ، وهيهات أن يسيءَ الرسلُ الظَّنَّ بربِّهم ، وهم يعلمون بأنَّ ا لله لا يخلفُ الميعاد ، ولا مبدّلَ لكلماته . انظر : الشهاب ٥/٢١٢

لذوي الألباب : أصحابُ العُقولِ النَّيِّرَة ، حيث نقل من غايةِ الحُبِّ إلى غيابَةِ الجُبّ ، ومِنَ الحصيرِ إلى السَّريرِ :

فسُبْحَانَ الَّذِي أَعْطَاكَ مُلْكاً وعَلَّمَكَ الجُلُوسَ عَلَى السَّرِيرِ

فإذن عاقبةُ الصَّبر الجميل جميلةٌ ، وأفضلُ أخلاق الرِّجال التَّصبُّرُ . ﴿ **مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى** ﴾ أي القرآن الكريم [١] ، ﴿ **وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ** ﴾ من الكتب الإلهية المنزلة كالتوراة والإنجيل والزبور غير المحرَّفة ﴿ **وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ** ﴾ يُحْتاجُ إليه من أُمورِ الدنيا والدين ، وهُدَىً من الضَّلالِ ، ورحمة ينال بها خير الدَّارين ﴿ **لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ يُصَدِّقُونَ بالقرآن ويتمثَّلون الإيمان الحق قولاً باللِّسان ، وتصديقاً بالجَنَان ، وعملاً بالأركان ، يُطَابِق فيه اللِّسانُ الجَنَانَ ، يزيدُ بالطَّاعةِ ، وينْقُصُ بالمعصيةِ ..

وهكذا نلمحُ أحداثَ القِصَّةِ ، ذات هدفٍ ومغزى ، ومرتبطَة تمام الترابُطِ ، وتومئ إلى وقائع لو تأمَّل فيها المدَقِّقُ لأحسَّ بالعِظَة والعِبْرَة ، ففيها

---

(١) هناك حديثٌ موضوعٌ يُنْسَبُ إلى النَّبيِّ ﷺ : (**علِّموا أرقاءَكُم سورة يوسُف ، فإنَّه أيُّما مسلمٍ تلاها أو علَّمها أهله ، أو ما ملكت يمينه ، هوَّن الله عليه سكراتِ الموت ، وأعطاه القُوَّةَ على أنْ لا يَحْسُدَ مسلماً**) . والحديث موضوعٌ ومُنْكرٌ ، ولعلَّهم تلمَّسوا مِن قول يُوسُف عليه السلام ﴿ **توفَّني مُسْلِماً وَأَلْحِقْني بالصَّالِحِينَ** ﴾ تهوينُ سكرات الموت ، وأمَّا عدمُ الْحَسَدِ فلاعتبار أنَّ يُوسُفَ بما وقع له بسبب حسد إخوته ظفر وفاز ، وكان ذلك سبباً في رفعته في الدُّنيا والآخرة ، كما قال الشاعِرُ :

عِدَايَ لَهُمْ فَضْلٌ عَلَيَّ ومِنَّةٌ فَلاَ قَطَعَ الرَّحْمَنُ عَنِّي الأَعَادِيَا

وقال أبو تمَّام : **وإذا أراد الله نَشْرَ فَضِيلَةٍ طوِيَتْ أَتَاحَ لَهَا لِسَانَ حَسُودِ**

لَوْلاَ اشْتِعَالُ النَّارِ فِيما جَاوَرَت مَا كَانَ يُعْرَفُ طِيبُ عَرْفِ العُودِ

القدرةُ الإلهيةُ البالغةُ ، وفيها الحِكَمُ الرَّائعة ، وفيهـا تصويـرٌ للذّكـاء البشـري ، والعقليةِ الإنسانية .

يقول الدكتور شوقي ضيف : " ومِن هُنا تـأتي صُعوبـة القِصَّـة ، فهـي ليست سرداً قصصيّاً كما قد تبدو ، وإنّمـا هـي خَلْقٌ ، وضَبْطٌ ، وإِحْكَـامٌ ، ودَأَبٌ ، في أن يبُثَّ القَصَّاصُ في قِصَّته ما يجعلها خليقةٌ بالبقاءِ " [١] .

ومع أنَّ هذه الأحداث جاءت في أُسلوبٍ حركيٍّ يدفعها لكي تصل إلى النهايـة دون تعثُّرٍ أو وقوفٍ ، إلاَّ أنّنا نرى أنَّ بعض الأحداث قد تقـف أحيانـاً عند تجاوزها بحدثٍ آخر ، حتّى قد يظـن أنَّ شيئاً مـن التسلْسُـلِ الحركـيّ قـد انقطع ، ولكن في الحقيقة إنَّ هذا التوقُّف الحدَثي المؤقّت دعامـةٌ أساسيةٌ مـن دعائم بناء القِصَّة القرآنية ، وعنصرٌ هامٌّ مـن عنـاصر تشـويقها ، فتوقُّـف هـذا الدَّفع الحدَثي أجْلَى طبيعـة الحَبْـك الفنِّـي في القِصَّـة القرآنيـة الشـريفة ، وعلـى سبيل المثال : " **حجزُ بنيامين بعد أن وُجِدَ الصُواعُ في وعائـه** " .

فمصيرٌ بنيامين أصبح مجهولاً حتّى يذهب إخوته إلى أبيهم ، وقد عرَّفـوه بالحقيقة التي عرفوها ، فحدث بنيامين قد توقّف قليلاً ، ولكنّـه مـا توقَّـف إلاَّ لكي نستمِع إلى حدثٍ آخر ، وفيه شيءٌ من الارتبـاط الوثيـق بينـه وبـين هـذا الحدث الذي يُظَنُّ أنـّه قد توقَّـف كمـا يُفْهَـمُ مـن قـول يعقـوب : ﴿ **يَـا بَنِـيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِـن رَّوْحِ ا للهِ إِنـَّه لاَ يَيْـأَسُ مِن رَّوْحِ ا للهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ** ﴾ .

وإنِّي أرى أنَّ تسلسُلَ أحداث القِصَّـة القرآنيـة ، ودفعهـا بهـذا السـحر العجيب ، وما لها من أُسلوبٍ حركـيٍّ بديـع ، ربَّمـا أنـَّه لفـت أنظـار بعـض

---

[١] في النقد الأدبي للدكتور شوقي ضيف ، الطبعة الرابعة ، ص ٢٢٩

النُّقَّاد العصريين الذين اهتمُّوا بأدب القِصَّة ، حتَّى وضعوا معايير فنيَّة لصياغة القِصَّة ، فاشتقُّوا الكثير من تلك الأحداث القصصية القرآنية ، فيرون " **الصياغة الفنية ليست مجرَّد تشكيل أحداث القِصَّة فحسب ، بل هي كذلك المحرِّك الذي يحرِّكُها ويتحرَّك معها في إطارِ الحَبْك الفنِّي ، وما يقتضيه من ترتيب المواقف وتنسيقها تقديماً أو تأخيراً ، إجمالاً أو تفصيلاً ، مع الرَّبط الوثيق في ترتيب المواقف والأحداث في ترتيبٍ مقنعٍ يقومُ على أساسِ الاقتناع القائمِ بين القِصَّة وقارئِهَا** " [١] .

أمَّا مِن حيث واقعيتها ، فكلمةُ حَقٍّ إنَّ الأحداث كلَّما كانت مأخوذة من واقع الحياة ، صادقة في الكشف عن جوانبها ، جادَّة في الوصول إلى ما حولها ، وما يحيط بها ، كانت القِصَّةُ التي تذخر بتلك الأحداث قِصَّةٌ لها وقعها النبيلُ على النَّفْسِ .

فإنّنا لو تأمَّلنا القَصَّ القرآني ، لوجدناه كالعدسة النقية الجليَّة التي تَشِفُّ أحوال الأُمم ، وتُسَجل ماضيها مع الكثيرِ من الأنبياءِ والرُّسُلِ .

والقِصَّةُ القرآنيةُ كثيراً ما أعربت عن دور الرُّسُلِ في نشر الدَّعوة والعقيدة السماوية ، وأفصحت عن نوايا النَّفْس ، ومكنون الخواطر بأُسلُوبٍ بلغ المدى في الفصاحة والبلاغة ، وما ينبغي لأحدٍ أنْ يَصِفَ القِصَّةَ القرآنية بأنَّها أُسطورةٌ [٢] من الأساطير ، اللَّهُم إلاَّ إذا كان من أهل الوثنية والشرك ، وأهل الزيغِ والضَّلال .

---

(١) صور ودراسات في أدب القِصَّة ، لحسني نصَّار ، ص ٧٣ ، طبعة عام ١٩٧٧ م .

(٢) إشَارةٌ إلى ما افتراهُ الْمُلْحِدُ الدكتور محمَّد أحمد خلف الله في كتابِهِ " **الفن القصصي في القرآن الكريم** " جازاه الله بما يستحقه .

وصَدَقَ ا لله عزَّ وجلَّ حينما سجَّل عليهم عنادهم ، وحكى افتراءهم ، فيقول عزَّ مِن قائلٍ : ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُواْ ظُلْماً وَزُوراً * وَقَالُواْ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً** ﴾ [الفرقان : ٤-٥] .

ولقد ردَّ ا لله سبحانه وتعالى على هؤلاء ، لكي يبطل ادعاءاتهم الكاذبة ، فأبان عزَّ وجلَّ عن أنَّ هذا القرآن الكريم كله ، بما فيه هذا القَصُّ القرآني ، منزلٌ من عند الحق عزَّ وجلَّ ، الذي يعلمُ السرَّ وأخفى ﴿ **قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً** ﴾ [الفرقان : ٦] .

إنَّ القرآن الكريم بما فيه هذا القَص كُلُّهُ حَقٌّ ، وليس فيه زيغٌ ولا اختلاق ﴿ **بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ** ﴾ [يونس : ٣٩] .

إنَّ القِصَّةَ القرآنيةَ قِصَّةٌ تمثِّلُ أحداثاً حقيقية ، وجوانبَ ملموسة ، ومشاهدَ قد تمَّ وقوعها ، فليست القِصَّةُ القرآنية جانباً خُرَافِياً ، أو حادثاً وهمياً ، أو أمراً اختلاقياً ، أو عنصراً ما كان إلاَّ للتزييف والمبالغات الوهميَّة ، حبّاً في الإثارة المصطنعة ، وجمع الآذان التي تطيب لكثيرٍ من الأحداث التي بُنِيَتْ على الحدث والتخمين .

إنَّنا لو تأمَّلنا أحداث القِصَّة القرآنية جزئيَّةً جزئية ، لكُنَّا صادقين في القولِ بأنَّها أحداثُ الوقائع الملموسة التي قد شوهِدَت في زمنٍ من الأزمنة ، وهي بعيدةٌ كُلَّ البُعْدِ عن أي مبالغةٍ ممقوتةٍ ، والأدِلَّة على ذلك لا حصر لها .

إنَّ القِصَّة القرآنية قِصَّةٌ واقعيَّةٌ تُذَكِّرُنا بأحداث الأُمَمِ ، وتدعونا إلى التَّأمُّل في سلوكهم جيلاً بعد جيلٍ ، لكي نقف على حيلهم ، وما صنعوه تجاه رُسُلِهم ، وفي ذلك دربة للعقول المفكِّرة ، وفي ذلك فليعتبرِ المعتبرون .

إنَّ آثار الأسطورة على النَّفْسِ إنْ أحدثت هِزَّةً ، فسرعان ما يضيع أثرها ، وينمحي بريقها .

أمَّا القِصَّة الواقعية فلن يضيعَ أثرها على النَّفس ، ولن تنطفئ شعلتها الموجَّهة للنفوس الهاديةِ للحائرين ، إذ أنَّ النفوس البشرية تَسْكُنُ للحقائق ، وتطمئنُّ لكُلِّ حدثٍ سرى في الحياة ، لكي تقف على نهايته وتعرف نهاية الصَّالِح ، وعاقبة الطَّالِح .

أمَّا الأحداثُ الوهمية الخرافية ، فإذا كانت في أصلها أمراً مختلقاً ، وشيئاً مصنوعاً ، فكيف تشتاق النفوس لمعرفة غاياتها ، والوقوفِ على ثمرتها ، فالحدس والتخمين والافتراء أمرٌ لا تقبله العقول فضلاً عن أن يحدث دويّاً في نفس القارئ أو السامع .

لله ! ما أحكم القَصَص القرآني ! وما أعظم صدقه ! وما أجلَّ وقائعه ! وما أسمى أحداثه التي كانت أمينة في نقل المشاهد ، حتَّى كانت في قِمَّة الفصاحة والبلاغة وروعة البيان والأداء ، ولا ريث ولا عجب فهي تنزيلٌ مِن حكيمٍ حميد .

إن واقعية القِصَّة القرآنية كانت مبرراً في سرد الأحداث بتفاصيلها ، حتَّى كان تأثير القِصَّة القرآنية ليس مبعثه تخيُّر موقفٍ معيَّنٍ ، أو حدثٍ بذاته ، كما نشاهده في كثيرٍ مِنَ القَصص التي اصطنعه كُتَّابُ اليوم ، فهم لا يستطيعون - كما لمس ذلك بعضُ الباحثين ، ومنهم الأستاذ

أحمد أمين [1] - لا يستطيعون أن يَقُصُّوا تفاصيل الأشياء جميعها ، إنَّما يتخيَّرون ما يعدُّونه موضع التأثير .

ومِنْ ثَمَّ اختلف الفنانون ، فإنَّ الأشياء لا تقع في نفوسهم موقعاً واحداً ، بل قد يتأثَّر كُلٌّ بناحيةٍ غير التي يتأثَّر بها الآخر ، فيخرجها كُلٌّ كما تأثَّر بها ، وبهذا صُبِغَ فنُّهم بالكمالية ، حيث أنَّهم لا يُخْرِجُون الشيءَ كما هو في الخارج ، ولكن كما يتصوَّرونه ويتخيَّلونه ويتأثَّرون به .

وما كان لي أن أحْدِثَ شيئاً من المقارنة بين هذا القَص البشري ، وبيْنَ هذا القَص الربَّاني ، فشتَّان بَيْنَ قول المخلوقِ وقول الخالقِ .

ولكن قصدي أن أُثبتَ أنَّ الإعجاز القَصَصِي الربَّاني ، حيثُ أنَّ واقعيتَّه ، وسرد أحداثه ، لها قُوَّةٌ في التأثير ، وروعةٌ في تحريك المشاعر من غير أنْ يكون فيها موقف معيَّن أراده الحقُّ عزَّ وجَلَّ ، فإنَّ كُلَّ سلسلةٍ فيها ، وكُلَّ جزئية ، قد صوَّرت الواقع ، لها ما لها مِن سحْرٍ خلاَّب ، وقُوَّة بيان ، وحُسْنِ مغزى ، وعلى هذا اتَّسمت القِصَّةُ القرآنية بسماتِ الإعجاز ، مادامت لم تجنح إلى الخيال في تأثيرها ، وإلى التقاط بعض المواقف لكي يكون وقعها على النفس أشد ، ورنينها على الأسماع أقوى نغمة .

إنَّ واقعيَّة القصَّة القرآنية ، وتتابُعَ أحداثها ، وتسلْسُلَ أفكارها ، وترابُطَ معانيها ، حتَّى كانت كالبنيان يشُدُّ بعضه بعضاً ، أكسبها رونقاً وسِحْراً جذَّاباً ، وأعطاها جمالاً لا ينكره أصحاب المواهب الفطرية ، والعقول المستنيرة ، والعواطف المتأججَة بحرارة الإيمان .

---

[1] النقد الأدبي ، لأحمد أمين ، ص ٦٩ ، طبعة ١٩٦٧ م .

إنْ كان هناك شيءٌ من الخيال في القِصّة القرآنية ، فهو ليس مقصوداً لذاته ، ولا يمثّل حلقة مِن حلقات القِصّة القرآنية ، وإنّما أراد به الحقُّ عزَّ وجلَّ أن يوضحَ حدثاً ويجلّيه أمام العرب ، حتّى يتمثّلوا الوقائع التي حدثت عند الأُمَم الغابرة ولَم يُشاهِدوها ، كأنّها ماثِلةُ أمامَ أعينهم .

ومِن ذلك قوله تعالى : ﴿ **وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ** ﴾ [الحاقّة : ٦-٧] .

فالله تبارك وتعالى أراد أن يُبيّنَ لنا قُوّةَ الرّيحِ التي أهلكت عاداً وهم قوم هود ، فلقد سلّطها الله عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيامٍ متتابعة لا تفتر ولا تنقطع ، فكانت النتيجة أنْ تركت هؤلاء القوم صرعى ، أي موتى ، لا حركة فيهم ولا حِس ، فهذه حقيقةٌ وأحداثٌ تُمَثّلُ الواقع ، ولكنَّ الله سبحانه وتعالى لكي يوضحَ لنا حال تلك الجُثث وهيئتها ، جنَحَ إلى التشبيه الذي يُقَرّبُ الأفهام فقال : ﴿ **كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ** ﴾ : أي كأنّهم أُصُولُ نخلٍ متآكلة الأجواف ، فلقد حدَّث [١] المفَسّرون أنَّ الرّيحَ كانت تقطع رؤوسهم ، كما تقطع رؤوس النّخل ، وتدخل من أفواههم وتخرج من أدبارهم حتّى تصرعهم ، فيصبحوا كالنّخلة الخاوية الجوف .

وهكذا كان التشبيه بأعجاز النّخل لمسةً من لمسات إجلاء الأمر أمام العرب الذين عرفوا النخيل ، فالخيال هنا القائم على التشبيه لم يغير مجرى الواقعية في القِصّة القرآنية ، وإنّما جاء لنقل المَشاهِدَ غير المرئية في صُورة

---

(١) صفوة التفاسير ، للصابوني ، ٦/٢٩ ، الطبعة الأولى .

المشاهـد المرئيـة ، حتّى يكون وقعها على النّفْس أشـدّ ، وتكتمــلُ الصُّورةُ في عقل القارئ للقِصَّـة القرآنيـة .

وهكـذا نحـسُّ بأنَّ إجـلاء الوقائـع بطريــق التشبيــه ، أو الاستعــارات لا يُخْرِج القِصَّـة القرآنية عن واقعيتها ، بـل بـالعكس يـبرز هــذه الواقعيــة في ثوبٍ محسوسٍ ملموسٍ .

وقد نرى مشهداً من مشـاهد القِصَّـة القرآنيـة ، وقـد يبـدو للسـطحيين لأوَّل وهلة أنَّـه محض خيال وأسطورة من الأساطير ، وذلك مِن مثلِ قول الحقّ عزَّ وجـلَّ : ﴿ **وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّواْ أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ [الأعراف : ١٧١] .

فرفع جبل الطُّور فوق بـني إسـرائيل حتَّـى أصبح كالظُّلَّـة الـتي تظلّلهـم فخيَّل إليهم أنَّـه سيقع عليهم فيهلكهـم هـذا الأمـر في نظـر السـطحيين مـا دام لا يقبله العقل ، فما أشبهه بالخرافات ، وقد نسوا أنَّ الذي قد رفع الجبل فوق بني إسرائيل ، وأمرهـم أن يـأخذوا مـا آتـاهم بقـوَّةٍ بـدون تضجُّـر أو تذمُّـر ، ويحافظوا على العهود والمواثيق أشدّ محافظة ، نَسُوا أنَّ الذي صنع تلك المعجـزة الباهرة هو الحقُّ عزَّ وجلَّ .

فقُوَّة الله سبحانـه وتعـالى الـتي أهلكـت قـوم لـوط ، وبـدَّدَت قراهـم ، وأغرقت قوم نوح بالطُّوفان ، وقـوم هـود بـالريح العاتيـة ، هـي الـتي رفعـت هذا الجبل على غير العادة البشريــة ، فـإذا كـان التـاريخُ يؤكّـد تلـك الواقعـة ولا ينكرها ، فإنَّ العقلية المتفتحـة ، والقلـوب المسـتنيرة لا تنكـر هـذا الحـدث فهو أمرٌ سهلٌ أمام عظمة الله سبحانه وسلطانـه .

وقد ذكر السيد رشيد رضا في تفسير المنار أنَّ هذا المعنى من رفع الجبل ، وأمر بني إسرائيل أن يأخذوا ما آتاهم الله من الأحكام بقُوَّةٍ ، وأن يفعلوها دون تذمُّرٍ أو توقُّف ، يذكر السيد رشيد رضا في المنار " أنَّ هذا المعنى اعْتُرِض عليه بأنَّه إكراهٌ على الإيمان ، وإلجاءٌ إليه ، وذلك ينافي التكليف " .

ولكنَّنا إذا علمنا أنَّ كثيراً من الأُمم السابقة حينما يشتد عنادها ، وتكثُر مواقفها الدالَّة على العُلو والطُّغيان ، كان لابُدَّ من عاملٍ تهديدي يردعهم ، وقُوَّةٍ علويَّةٍ تسيطر عليهم ، لعلَّهم يرتدعون ، أو يعودون إلى شيءٍ مِن رشدهم ، وقد حدث هذا في أكثر من موقف لبني إسرائيل ، ومِن ذلك قول المولى تبارك وتعالى : ﴿ **فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلاَتٍ فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْماً مُجْرِمِينَ * وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُواْ يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ** ﴾ [الأعراف : ١٣٣-١٣٥] ، فارتفاع الجبل من فوق بني إسرائيل لعلَّه مِن باب الردع والزَّجْر ، وخصوصاً أنَّهم أشدُّ استكباراً وأشدُّ طغياناً ، فما أحوجهم إلى مثل هذا .

ولستُ مَعَ قولِ مَنْ يقول : إنَّ جزءاً عظيماً من الجبل اقْتُلِعَ من مكانه أثناء رجفة أو زلزال ، ورأوه بأعينهم أسفل الجبل كأنَّه ظُلَّة ، وخافوا وقوعه بهم ، وذلك عند أخذ ميثاقهم على العمل بالتوراة ، على معنى أن يكون هذا العمل وليد الصُّدفة والتأثيرات الجوية الزلزالية .

ولكنّني أُؤَيـد ما ذهب إليـه الإمام الشيخ محمَّد عبـده مِن أنَّ رفـع الطُّور كان آيـةً كونيـة ، على معنى أنَّه انتُزِعَ مـن الأرض وصـار معلَّقـاً فوقهـم في الهـواء ، إنَّها آيات كونيَّـة ، ومظاهـر خارقـة ، تعجَـز عنهـا البشريـة لتكـون أدلَّ على قـدرة ا لله عزَّ وجـلَّ .

وما القصَّة القرآنيـة في عمومها إلاَّ داعيـة إلى الحق عزَّ وجـلَّ ، وموجَّهة إلى سلطانـه الذي لا ينفـد ، وقدرتـه التي لا حـدَّ لها .

إن كان هناك مشهدٌ من مشاهد القِصَّـة القرآنيـة فيـه شيءٌ مِـن الغرابـة التي لا يتأنَّـس بها العقـل ، فمبعثـه أنَّنا نقيس الأُمور بمقيـاس بشـري ، ولكنَّنـا إذا رددنا الأُمور إلى القُـدرة الخارقـة ، والإعجـاز الإلهي ، أحسسنا تماماً بأنَّهـا أمورٌ تقبلها النفس ، وتأنس بها النفوس المؤمنـة .

إنَّ القِصَّة القرآنيـة ما ينبغي أن نصفهـا بـالقصص الرومانسـية البحتـة ، التي هي مليئــة بالغرائــب والأحــداث غـير المــبررة ، والـتي ليسـت هـي مـن وقائـع الحيــاة ، كمـا نـرى كثـيراً عنـد بعـض الكُتَّـاب العصريـين مـن مثـل : " **نداء المجهول** " لمحمود تيمور [١] ، فهي مليئة بكثيرٍ من الأحداث التي تفيـض بالغرابـة ، وتنقطع تماماً عن واقع الحياة .

إنَّ وقائع القِصَّـة القرآنيـة بعيـدةٌ كُـلَّ البُعـد عـن التوهُّمــات الباطلـة ، وكانت جودتها وقُوَّة سحرها الفيَّاض ، ليست منبثقـةٌ مــن صُنْـعِ الخيـالات ، كما يصنع ذلك بعض القصَّاصين الخرافيين ، وإنَّما قُـوَّةُ سحر القَـص القرآنـي يفيض من روعـة تصويرهـا الحقيقـي ، وجمـال أحداثهـا الواقعيــة ، والـتي لهـا ما لها من تبريرٍ معقولٍ ، وهذا سِـرٌّ مـن أسـرار الإعجـاز القرآنـي ، إذ كـان

---

(١) الأدب القصصي والمسرحي في مصر ، للدكتور أحمد هيكل ، ص ١٩٥

تأثيره لا مِن باب التّصنُّع والافتراضات الوهميَّة ، وإنَّما كان تأثيره لأنَّه يدور حول حلقات الوقائع ، ويسري بين كُل لمسة من لمسات الحياة ، فكان قبساً يبددُ الظّلام ، ويلهمنا الحكمة والرَّشاد .

وهكذا نلمح أنَّ القَصَّ القرآني يغرس العقيدة في القُلُوبِ بما يعرضُه علينا من ملامح خارقة ، وأحداث مثيرة ، تَنُمُّ عن قدرة ا لله عزَّ وجلَّ .

وفي القِصَّةِ القرآنية دعوةٌ صريحةٌ إلى الأخذ بالأسباب ، بعد أن يعتمد الإنسان على ربه ، ويستمد العون من خالقه سبحانه ، ويتجلّى ذلك كثيراً في أحداث القِصَّةِ القرآنية ، فوضع موسى في التابوت ، وما حول ذلك من حِيلٍ كانت سبباً من أسباب نجاته من فرعون ، ولولا وضعه في التابوت لَمَا وصل إلى فرعون ، وعاش داخل منزله ، ولولا أنْ سَقَى لابنتي شعيب لَمَا تزوَّج بإحداهما ، ولولا أنَّه حدَّد يوم الزينة للسَّحرة لَمَا آمن به مَن آمنَ ، ولولا أنَّ الهُدْهُدَ غاب عن سليمان عليه السَّلام لَمَا أتاه بتلك الأنباء التي كانت سِرّاً من أسرار نقل عرش بلقيس ملكة سبأ ، ولإعلانها الإسلام : ﴿ **قَالَت رَب إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ للهِ رَب الْعَالَمِينَ** ﴾ [النمل : ٤٤] .

ولولا زَجُّ يُوسُفَ في السجن لَمَا اشتهر أمره بتفسير الأحلام التي كانت سبباً في أنَّ المَلِكَ استخلصه لنفسه ، حتّى مكّنه ا لله في الأرض ، فجعله على خزائن الأرض مِمَّا أدَّى إلى التقائه بإخوته .

وذو القرنين وقد مكّن ا لله له في الأرض ، وآتاه من كُل شيءٍ سبباً ، ولكنَّه ظلَّ يأخُذ بالأسباب ، ويعمل بالحِيلَة ، حتّى وصلَ إلى ما وصلَ من مشاهِدَ ذكرها القرآن الكريم ، وكثيراً ما يُعَقّب القرآن الكريم على

الأحداث بقولـه تعالى : ﴿ **فَأَتْبَعَ سَبَباً** ﴾ [الكهف : ٨٥] . ﴿ **ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً** ﴾ [الكهف : ٨٩] .

وهكذا نرى أنَّ القِصَّة دائماً وأبداً توحي بأنَّ لِكُلِّ شيءٍ سبباً ، فهي تربطُ السَّبَب بالمُسَبِّب ، والعِلَّة بالمعلول ، وكأنَّها تَحْفُزُ القارئ والسَّامع إلى أن يُهَيئَ نفسه ، ويأخُذ بالأسباب ، وبأساليب الحياة وطُرُقها المتعدِّدَة ، مع اعتماده على الحقِّ عزَّ وجلَّ حتَّى يصِلَ إلى سفينة النجاة .

والقِصَّةُ القرآنيةُ تُعَوّدنا على الصَّبر والأناة ، وعلى تَحَمُّلِ الشَّدائد في سبيل الوصول إلى الغاية المثلى ، فالرُّسُلُ عليهم السلام قَد صبروا على إيذاء قومهم ، وتحمَّلوا الشدائد في سبيل نشر دعوتهم حتَّى كانت الغلبة لهم ، كما يُفْهَم من قولِ الباريْ عزَّ وجلَّ مُرْشِداً رسوله ﷺ : ﴿ **فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُواْ الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ** ﴾ [الأحقاف : ٣٥] .

والقِصَّةُ القرآنيةُ طريقٌ من طُرُقِ الحياة المستقيمة ، فهي منهاج الدَّعوة ، تتجلَّى فيها الحكمة والموعظة الحسنة ، فأُسلُوبها يمتاز بالمحاورة الهادئة ، والأسلوب المقنع ، وهي بذلك تعوِّدُنا على المحاورة الجادَّة ، وأساليب الإقناع التي يجب أن يلتزمها الدَّاعية ، فجميع الرُّسُل لا تأمر وتنهى بأُسلوبٍ عنيفٍ ، وبعبارة غير مدللة ، وإنَّما تلتزم الأسلوب المنطقي ، والأدلَّة المكشوفة ، والمقدمات الموصلة إلى النتائج ، ومِن ثَمَّ يكون لكلامهم شيءٌ من الاستجابة ، ولدعوتهم آثار عند القلوب المفتوحة ، أمَّا مَن طمس الله على قلبه ، وأعمى بصيرته ، فلن تفيده الحكمة ، ولن ترده الموعظة الحسنة ، حتَّى يظل فؤاده مغلقاً ، وبصيرته مطموسة ، وصَدَقَ اللهُ عزَّ وجلَّ حينما حكم على المعاندين من بني إسرائيل ، وقد لاح لهم الكثير من الأدلَّة التي

تكشفُ عن عظمة الخالِق ، ولكنّهم لم يقتنعوا برسلهم ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة : ٧٤] .

إنَّ القِصَّةَ القرآنيةَ مع التزامها بالأسلوب الهادئ ، والحكمة البالغة ، إلاّ أنّها تصور لنا كثيراً من عناد المعاندين ، كما يتّضح ذلك جليّاً من قوله تعالى : ﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِزْقِ اللهِ وَلاَ تَعْثَواْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ * وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُواْ مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَت عَلَيْهِم الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُواْ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴾ [البقرة : ٦٠-٦١] .

إنَّ النُّفُوسَ البشرية تتباين طبائعها ، وتختلف مشاربها ، فمنها مَن رَقَّ قلبه ، وسكنت نفسه ، حتّى كان وقعُ العِظَة عليها له أثره البالغ في قبولها لهدى الله ، فيزول عنها ما علق بها مِن أكدار ، حتّى تستنير بنور الله سبحانه .

أمّا القلوب المتحجرة ، فإنّها تظل في نكتتها السوداء ، لأنَّ عقلها شاردٌ ، فالصَّلَفُ يحدوها ، والكِبْرُ يطغيها ، والعِنادُ يحيطُ بها مِن

كُل جانب ، لا همَّ لها إلاَّ أنْ تتحدَّى الرُّسُلَ بكـثرةِ متطلّباتهـا ، فـإن أُجيبت إلى شيءٍ نزعـت إلى شيءٍ آخر ، ولن يَقْضِي علـى شَرّها ، ويمحـقُ ضلالتهـا إلاَّ عذاب الله لها .

وهكذا نرى النُّفُوس المتباينة ، فمِنَ النَّاس مَن يستجيب لدعـوة الحق ، ومِنْهُم مَن يُعْرِض عنها .

وهكذا كانت القِصَّـة القرآنيـة ، توجهنا إلى هـذه الأصنـاف المتباينـة ، فالدَّاعِي إلى الحَق بالحكمة والموعظـة الحسنة ما عليه مِن حرج إنْ أعـرَضَ عنـه مُعْرِضٌ ، أو انصرف عنـه باغٍ مستكبرٍ : ﴿ **قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُواْ إِلَـى اللهِ عَلَـى بَصِـيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِـي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَـا أَنَـا مِـنَ الْمُشْـرِكِين** ﴾ [يوسف : ١٠٨] .

ولقـد ذهـب بعـض البـاحثين [١] إلى أنَّ القِصَّـة القرآنيـة مـن أغراضهـا إثبات الوحي والرسالة ، وهو يقصد بذلـك أنَّ محمَّـداً ﷺ مـع كونـه أُمِيّـاً ، وقد أتى بهذه الأخبار المغيبـة ، كـان ذلـك دليـلاً قاطعـاً علـى أنَّ مـا يقولـه وحيٌ يُوحى .

والقِصَّـةُ القرآنيـة ترشـدنا تمامـاً إلى أنَّ الرُّسُـلَ وإنِ اختلفـت أزمانهـا ، وتعدَّدت أممها ، فدعوتها واحـدة ، إنَّها تدعو أوَّل مـا تدعـو إلى عبـادةِ الحَـقّ عَـزَّ وجـلَّ ﴿ **وَلَقَـدْ بَعَثْنَـا فِـي كُـل أُمـَّةٍ رَسُـولاً أَنِ اعْبُـدُواْ اللهَ وَاجْتَنِبُـواْ الطَّاغُوت** ﴾ [النحل : ٣٦] .

كما أنَّ القِصَّة القرآنية فيها تعليمٌ وإرشادٌ ، كمـا يتَّضِح لنـا ذلـك مِنْ قِصَّة آدم عليه السلام ، فهـي تحـذِّر بـني آدم مـن الشيطان الـذي اسـتطاع أن

---

(١) التصوير الفني في القرآن ، لسيد قطب ، ص ١١٨-١٢٦

يُضِلَّ أباهم ﴿ **فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَ يَبْلَى** ﴾ [طه : ١٢٠] .

وفي القِصَّة القرآنية ما يُفيد أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد يحجب سر حكمته عن أقرب خلقه ، مِمَّا هو واضح في قِصَّة آدم ، حيث حجب حكمة استخلاف آدم عن الملائكة ، لكي يشتاقوا إلى معرفة هذا السّر الدَّفين ، وأنَّ الله تبارك وتعالى إذا وُجهَت عنايته إلى أقلّ شيء ، استطاع بقدرته البالغة أن يُحَوله إلى شيءٍ عليه الرونق والبهاء ، ويُضْفِي عليه من سناء عظمته ما يُحَوّلُ مرآه إلى شيءٍ له قَدْرُهُ ، كما يتّضِح ذلك في خلقه آدم عليه السلام من التُّراب .

كما يتّضِح في تلك القِصَّةِ أنَّ طبيعة الإنسان الضعيفة قد تتغلَّب عليه ، فآدم عليه السَّلام مع طاعته وامتثاله لربه ، إلاَّ أنَّ بشريَّته طغت عليه حتى أطاع إبليس ، وأكل من الشجرة التي نُهِيَ عن الأكلِ منها [1] .

والقِصَّةُ القرآنيةُ ترشدنا إلى التسامح المُطْلَقِ عند الدَّعوة إلى الله ، وعدم مقابلة الإساءة بالإساءة ، والشرّ بالشرّ ، مِمَّا يتَّضِح جَلِيّاً في قِصَّة هُود عليه السلام ، فإنَّ قومه يوجهُون إليه تلك العبارة : ﴿ **إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ** ﴾ [الأعراف : ٦٦] ، ولكنّه بدلاً من أن يرُدَّ عليهم ردّاً عنيفاً ، يتماثل مع قولهم ، يكون جوابه لهم : ﴿ **يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَب الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ** ﴾ [الأعراف :٦٧-٦٨] .

ومع رميهم له بالجنون الذي اعتراه به بعضُ آلهتهم على حسب زعمهم ، لكِنّه رَدَّ عليهِم رَدّاً دَلَّ على حُسْنِ الخُلُقِ فقال : ﴿ **إِنِّي أُشْهِدُ الله**

---

[1] قصص الأنبياء ، لعبد الوهَّاب النجّار ، ص ٢١

وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنْظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبي وربكُم مَا مِنْ دابَّةٍ إلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إنَّ رَبي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [هود : ٥٤-٥٥] .

والقِصَّةُ القرآنيةُ تغرِسُ فينا حُبَّ الخير ، والنزعة المتدفقة التي تدعونا دائماً لأنْ نسيرَ في الطريق الذي يجلب النَّفْعَ إلى البشرية ، ويزيل عنهم الضَّرر .

فإنَّ الرُّسُلَ عليهم السَّلام ما قصدوا بدعوةِ النَّاسِ ، وإرشادهم إلى عبادة الله ، والعمل بأحكامه ، إلاَّ أن يوجهوهم إلى الخير المُطْلَق ، فيأخذوا بأيديهم من كُل هاوية ، ما قَصَدُوا بذلِكَ نفعاً مادّياً ، وكما يقول الحقُّ سبحانه وتعالى على لسانِ نوح عليه السَّلام : **﴿ وَيَاقَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إنْ أَجْرِيَ إلاَّ عَلَى اللهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّهُمْ مُلاَقُواْ رَبهِم وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ ﴾** [هود : ٢٩] .

الخاتمــــة

أحْمَدُ الكريمَ على مَا يَسَّرَ مِنْ إنجَازِ هذا العملِ الجليلِ ، ومَـا فتحَ بـهِ مِن فيوضاتـهِ ، ومَا أسعفَ بـــهِ مِـنْ إلهامَاتـــهِ ، وأنْ يَجْعَلَـهُ خالِصاً لوجْههِ الكريم ، وأنْ ينفـعَ بـــهِ الإسْـــلاَمَ والمسـلمينَ ، إنـــَّهُ على ما يشاءُ قديـر ، وبالإجابـةِ جدير، وصلَّى الله وسلَّمَ على نبيّنا محمَّدٍ وعلى آلـهِ وصحبهِ وسَلَّمَ .

دِ . عمر بن محمَّد با حاذق



فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم .

١ **الأدب القصصي والمسرحي في مصر من أعقاب ثورة ١٩١٩م إلى قيام الحرب الكبرى :**

للدكتور أحمد هيكل ، الطبعة الثالثة .

٢ **الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير :**

للدكتور محمَّد أبي شهبة ، مكتبة السنة بمصر ، الطبعة الرابعة .

٣ **أصول النقد الأدبي :**

للدكتور أحمد الشايب ، الطبعة الثانية .

٤ **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ، (المسمَّى بتفسير أبي السعود) :**

لقاضي القضاة الإمام أبي السعود محمَّد بن محمَّد العمادي .

٥ **البحر المحيط :**

لمحمَّد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي ، دار الفكر للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٤١٢ هـ .

٦ **التصوير الفني في القرآن الكريم :**

لسيد قطب ، الطبعة السادسة .

٧ **تطور الرواية العربية الحديثة في مصر :**

للدكتور عبد المحسن طه بدر ١٩٦٣ م .

٨ **تفسير الجلالين :**

جلال الدين المحلّى ، وجلال الدين السيوطي ، مكتبة العلوم الدينية ، بيروت .

٩ **تفسير المنار :**

لمحمَّد رشيد رضا .

١٠ **الجامع لأحكام القرآن :**

لأبي عبد الله محمَّد بن أحمد الأنصاري القرطبي .

١١ **جامع البيان عن تأويل آي القرآن :**

لأبي جعفر محمَّد بن جرير الطبري ، الطبعة الثالثة .

١٢ **الجواهر في تفسير القرآن الكريم المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات :**

للأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري ، الطبعة الثانية .

١٣ **الدر المصون في علوم الكتاب المكنون :**

لأحمد بن يُوسُف المعروف بالسَّمين الحلبي . دار القلم .

١٤ **السبعة :**

لابن مجاهد .

١٥ **صحيح مسلم :**

تعليق محمَّد فؤاد عبد الباقي ، الطبعة الأولى .

١٦ **صفوة التفاسير :**

لمحمَّد بن علي الصابوني ، طبع دار القرآن الكريم ، بيروت .

١٧ **صور ودراسات في أدب القصّة :**

لحسني نصّار ، ١٩٧٧ م .

١٨ **عناية القاضي وكفاية الراضي :**

من حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي .

١٩ **فتح الباري شرح صحيح البخاري :**

لابن حجر العسقلاني ، إشراف محمَّد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب .

٢٠ **الفريد في إعراب القرآن المجيد :**

للهمذاني .

٢١ **فقه اللغة وسر العربية :**

لأبي منصور الثعالبي .

٢٢ **في النقد الأدبي :**

للدكتور شوقي ضيف ، الطبعة الرابعة .

٢٣ **القصة وتطورها في الأدب العربي :**

للدكتور مصطفى علي عمر ، الطبعة الأولى .

٢٤ **قصص الأنبياء :**

لعبد الوهاب النجّار ، الطبعة الثانية .

٢٥ **الكشّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل :**

لجار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي .

٢٦ **الكشف عن وجوه القراءات وعللها :**

لمكي بن أبي طالب .

٢٧ لسان العرب :

لابن منظور جمال الدين محمَّد بن مكرم الأنصاري ، الدار المصرية للتأليف والنشر .

٢٨ المحتسب :

لابن جنّي .

٢٩ مسند الإمام أحمد بن حنبل :

المكتب الإسلامي للطباعة والنشر ، بيروت .

٣٠ معترك الأقران في إعجاز القرآن :

لجلال الدين السيوطي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ .

٣١ النحو الوافي :

لعباس حسن ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الرابعة .

٣٢ النقد الأدبي :

للأستاذ أحمد أمين ، ١٩٦٧م .

٣٣ النقد الأدبي الحديث :

للدكتور محمَّد غنيمي هلال .

٣٤ اليهود في القرآن :

لعفيف عبد الفتاح طباره ، الطبعة الثانية .

فهرس المحتويات